الجوانب النفسية في أسلوب النداء: دراسة تركيبية دلالية

The psychological aspects of the call of vocative in Arabic nidaa

Grammatical Applied Study

د/عبدالله عويقل السلمي
جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

It is rare to find a mutual link between Arabic grammar and psychology, these rare studies concentrate on the psychological aspect rather than the linguistic side. According to the psychologists language is a bridge that helps transfer the human thoughts and feelings to others. It is a well known fact that link between different academic fields is useful as it helps find new ideas. The field of Arabic grammar and that of psychology should be linked together because sentences are constructed not only by grammatical rules rather the human psychology does have a role to play in its formation. The way of "Vocative" in Arabic *nidaa* includes psychological effects. This study examines selected examples that represent the psychological effects on Arabic language. It includes an introduction that explains the reasons for choosing the subject and the literature review. Part one includes psychological effects of "Vocative" and the meaning of its articles. Part two contains psychological effects in deletion in the style of "Vocative". Part three includes the psychological effects of changing the original meanings of "Vocative" .Finally, this study reaches a conclusion that the traditional grammarians did not give this subject the importance that it deserves because they are concerned with the form of the sentences but this also does not mean that they are totally ignorant of the meaning. However, the claim that they established a good link between psychology and grammar is a sort of exaggeration.

ملخص البحث

تعد الدراسات الرابطة بين قواعد اللغة العربية وعلم النفس نادرة الوجود، وما وجد منها يكون عند علماء النفس أكثر منه عند علماء اللغة ؛ لأن اللغة في نظر النفسيين هي الجسر الذي ينقل إليهم كل ما في الذهن من خواطر ومشاعر وأحاسيس وأفكار .

وإذا كان الربط بين العلوم يعد ضرورة حتمية - لاسيما في مجال الدراسات اللغوية؛ لما له من ثمار نافعة تتمثل في أنه يعين على فهم القاعدة النحوية فهماً دقيقاً ، ويساعد على إدراك ما يتوارى خلفها مما لا يجليه ظاهر اللفظ ، ولا يفسره إلا السياق المتمثل في إدراك واقع الحال والعوامل المؤثرة في المتكلم والسامع – إذا كان ذلك ضرورة فإن الربط بين القواعد النحوية وعلم النفس بخاصة أشد ضرورة وأعظم أثرا؛ لأن الجملة - بقواعدها النحوية والتصريفية - ليست شكلاً مجردا من الأحاسيس والمشاعر ، كما أنها ليست قوالب صرفة يصب فيها المتكلم مفردات مرتبة وفقاً لقواعد معينة ، وإنما هي استحضار للسياقات المختلفة ، فلكل سياق أسلوبه واستعماله وجمله وألفاظه، فالجملة لا تكون مستقيمة إن لم تكشف عن العوامل النفسية المحيطة بالمتكلم والمخاطب.

ويعد أسلوب النداء من أبرز الأساليب العربية التي لها جانب نفسي لدى المتكلم والسامع ، وهو أسلوب يحمل شحنات نفسية من الانفعالات والعواطف تؤثر في استعماله وتركيب جمله واختيار أدواته ؛ ولهذا تم اختياره ليكون مجالاً لهذه الدراسة ،حاول الباحث أن يكون مقتصراً فيها على أمثلة انتقائية,تكشف السلوك والأثر النفسي على استعمال هذا الأسلوب، متجافياً عن التفصيلات الدقيقة والخلافات العميقة.

وقد تناول هذا العمل مقدمة تبين دوافع اختياره، وأبرز ما كتب فيه، وذكر ما سيتناوله من مباحث أو مطالب بحثية.

ثم جاءت مطالب البحث على النحو الآتي:

المطلب الأول:أسلوب النداء بين علم النفس وقواعد النحو.

المطلب الثاني: الجانب النفسي لمعنى النداء ولدلالة أدواته.

المطلب الثالث: الجانب النفسي للحذف في أسلوب النداء.

المطلب الرابع: الدلالة النفسية لخروج النداء عن أصل معناه.

وانتهى البحث إلى نتيجة مؤداها أن النحويين لم يقفوا كثيرا عند الجانب النفسي، وإنما اتسمت دراساتهم –في عمومها- بسمة الاتجاه إلى المبنى، والاهتمام بالجانب اللفظي ووظائف التركيب ،غير أن هذا لا يعني أنهم لم يكن لهم اهتمام بالمعنى ومقتضى الحال والظروف الاجتماعية والنفسية المؤثرة في فن القول ،كما أن الزعم بأنهم سبقوا في تناول العلاقة بين علم النفس وعلم النحو زعم فيه مبالغة ، وأن إنكار مسهم الخفيف, وإشاراتهم العابرة لهذه العلاقة بعد مغالطة وطمس لجهودهم.

وهذا البحث يعد محاولة لبناء علاقة بين العلمين، وهو لبنة لتجسير الفجوة بينهما, ومحاولة للفت الأنظار إلى تجاوز دراسة القاعدة, وما يرتبط بها من عوامل, وأقيسة, وعلل إلى دراستها من منظور اجتماعي نفسي يعين ويسهم في قبولها والإقبال عليها.

مقدمة :

تعد الدراسات الرابطة بين قواعد العربية وعلم النفس نادرة، والموجود منها يعد عند علماء النفس أكثر منه عند علماء العربية؛ وذلك لأن اللغة في نظر النفسيين أحد أهم مظاهر السلوك الإنساني، بل هي بمثابة الجسر الذي ينقل إليهم كل ما في الذهن من خواطر ومشاعر وأفكار, حتى قال روبرت سولسو:"إنّ كل كتاب في علم النفس العام يتضمن فصلاً عن اللغة على الأقل, وتعالج عشرات الكتب موضوع علم نفس اللغة, كما أنّ هناك ما يزيد عن عشرين مجلة متخصصة في المجال النفسي للغة...إنّ دراسة اللغة الإنسانية أمر مهم بالنسبة للمشتغلين بعلم النفس المعرفي؛ لأنها تعين على فهم الكثير من أشكال التفكير الإنساني..." [23].فاللغة - إذن - ترتبط بالإنسان إلى حدٍّ كبير, وتميزه عن سائر المخلوقات, وعلم النفس يختص بدراسة السلوك الإنساني, والسلوك الإنساني من أهم جوانب الالتقاء بين علم النفس وعلم اللغة؛ لأن نقطة تلاقيهما فيه هو السلوك اللغوي, الذي يمثل أحد جوانب السلوك الإنساني, بل يعبر عنه في مواطن كثيرة. ومن هنا خرج لنا ما يسمى - حديثًا - بـ (علم اللغة النفسي)[24]، وهو علم "يعنى بالدراسة التجريبية للعمليات النفسية التي يكتسب المرء من خلالها نظام اللغة الطبيعية، ويقوم بتنفيذه، أي إنه يُعْنَى باللغة بوصفها ظاهرة نفسية عند المتكلم والسامع على السواء"[25].

وإذا سلمنا بأن الربط بين العلوم يعد ضرورة حتمية، لأن كلاً منها مؤثر في غيره ومتأثر به؛ فإنه في مجال الدراسات الإنسانية واللغوية منها على وجه الخصوص أشد إلحاحاً، ونحن إليه أكثر حاجة؛ لما فيه من ثمار نافعة ؛ إذ هو معين على فهم قواعد العربية فهماً دقيقاً، وبخاصة إدراك ما يتوارى وراء القاعدة النحوية مما لا يجليه ظاهر اللفظ، ولا يفسره إلا السياق المتمثل في واقع الحال، من مناسبة الكلام، والعوامل المؤثرة في حال المتكلم والمخاطب، والقرائن التي تفسر تداخل الاستعمالات، وتنوع المقاصد النحوية والبلاغية؛"فالناحية الأهم في اللغة ليست هي مطابقة الكلمات المنطوقة أو المكتوبة للصور والأفكار الذهنية المعبر عنها, بل لما تحدثه من أثر في السامع أو القارئ, فالوظيفة الأساسية للغة إحداث استجابات عند من تتحدث إليه, سواء أكانت هذه الاستجابات هي إثارة أفكار ومشاعر معينة أم تحريك الفرد للعمل"([26]). وتكمن الجوانب النفسية بين هذه الأمور، فيظهر الخوف والأمن، والأنس والوحشة، والألم والراحة، والاضطراب والطمأنينة، والقرب والبعد، والرِّضَا والغضب، وغيرها من الاستجابات الانفعالية وردود الأفعال للمثيرات المختلفة التي تحمل على التأمل. ولا غرو فقد عرَّف علماء المدرسة السلوكية النفسية اللغة بأنها مجموعة من العادات المنطقية الظاهرية التي تتكون لدى الأفراد نتيجة الاستجابات المتواصلة للمؤثرات الخارجية, وهي في ذات الوقت تكشف قدراً كبيراً من العمليات العقلية داخل النفس البشرية, يقول نعوم تشومسكي:"إنّ دراسة اللغة نفسياً قد يمدنا على نحو بالغ الجودة بمنظور

---

[23] علم النفس المعرفي,روبرت سولسو ص460.

[24] يطلق عليه أيضا:"علم النفس اللغوي"، و"علم نفس اللغة"، و"علم اللغة والنفس".

[25] مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، ص3

[1] علم اللغة النفسي، ص134.

متميز إلى حدٍّ كبير يتصل بدراسة العمليات العقلية التي يقوم بها الإنسان, ونستطيع من خلالها تتبع تقدم العقل البشري"[27].

إذن ربط القواعد النحوية بالجانب النفسي بخاصة يعين على استحضار ما وراء القاعدة المجردة وما وراء المعنى الظاهر؛ لأن الجملة العربية – إنشائية أو خبرية - ليست شكلاً مجرداً من الأحاسيس والمشاعر، كما أنها ليست قوالب صرفة يصب فيها المتكلم مفردات مرتبة وفقاً لقواعد - نحوية أو تصريفية - معينة، والنحو لا يرشدنا –فقط - إلى بناء الكلمات اللغوية وتصريفها، وبيان علاقتها المعنوية في الجمل والعبارات، وليس مجرد مساعد لنا في تكوين تراكيب لغوية سليمة صحيحة، وليس مجرد معين على بناء فِقَر مترابطة بروابط من حروف المعاني وغيرها، ثم تنتهي مهمته عندما تتحقق لنا صحة العبارة وسلامتها في ذاتها؛ بل تتعدى مهمته ذلك لتحضِّر القارئ في المستمع والمتكلم، ولا تقف إلا عند سلامة التركيب، وقوة التأثير. فهو - إذن - استحضار للسياقين المقالي والحالي، فالمقالي يكشف العلائق بين الكلمات والجمل، والحالي يربط بين المواقف، ويكشف العوامل النفسية المحيطة بالمتكلم والمخاطب[28].

كما أن الجانب النفسي في اللغة – أيضا - لا يعني محاولة فهم المعنى وإدراكه بعيداً عن القواعد النحوية، بل هو جزء منها؛ لأن طريقة نطق الجمل، وتنغيمها يؤدي إلى إشارات قواعدية ومعنوية ونفسية، يقول ديفتز وديفيتز (Davitz & Davitz 1959):"إن لدينا ثماني صيغ للصوت يمكن تمييزها عن بعضها الآخر، تبين للسامع مزاج المتكلم ومراده، وهذه الأمزجة هي:المودة، الغضب، الملل، المرح، نفاد الصبر، الفرح، الحزن، الرضا" [29].

وتتجلى هذه المؤثرات التي تؤثر في القاعدة النحوية فيما يعرف – مثلا - التضام والتلازم بين المبتدأ والخبر؛ لأن المبتدأ يستلزم الخبر، والخبر يستوجب المبتدأ؛ فالأصل حصول هذا التلازم، والعدول عنه فعليًّا لا بد أن تكون وراءه بنية عميقة وإشارة نفسية معينة، ففي قوله تعالى:{**فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ** عَقِيمٌ}[30]. حذف المبتدأ (أنا) وذكر الخبر (عجوز) للدلالة على الحالة النفسية التي عليها زوج إبراهيم- عليه السلام- طغى شعور كبرها ووهنها على ذاتها، فدفعها هذا الإحساس إلى وصف نفسها بالعجوز من غير تعبيرها عن ذاتها بالضمير (أنا)، وكأنها لم تعد تشعر بذاتها، ومن ثم بادرت بذكر هذا الشبح المخيف الذي كان مبعث يأسها من الإنجاب؛ ولأن الحديث الذي أثارها فأنطقها بهذه العبارة حديث بشارة بأنها ستنجب فبادرت مسرعة بأنَّ ثَمَّ عقبتين تحولان بينها وبين ذلك.

إن استحضار السياقين يعطي للتركيب دلالته، ويقوي العناصر اللغوية المتفاعلة مع بعضها، وفق قوانين النحو وضوابطه. ولو تأملنا عبارة:(يا عظيمة فائدة الباحثون المؤتمر أفيدوا من أيها بحوث) لوجدناها خلواً من الفائدة، فهي تشكل تركيباً هرائياً رغم أن كل المفردات واضحة الدلالة معجمياً،ولكن حينما تحضر العناصر التركيبية وتتفاعل مع القوانين النحوية، وتستحضر

---

[27] انظر علم النفس المعرفي، ص461, 462.

[28] بعضهم يسميه (السياق الاتصالي) ويفضل استخدامه المهتمون بعلم اللغة النفسي، ويقصد به تحقيق الاتصال والفهم بين المتكلم والمخاطب؛ لأنه ليس كل ما يقوله المتكلم يصل إلى السامع بمقاصده الدقيقة؛ لأن الفهم مربوط بحال المتلقي من انتباه وغفلة ونحوهما. انظر مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، ص30.

[29] انظر علم نفس اللغة من منظور معرفي ص235.

[30] الذاريات 29.

العوامل الجمالية للسامعين تصبح العبارة هكذا: "يا أيها الباحثون أفيدوا فائدة عظيمة من بحوث المؤتمر"، وهذا التركيب يتجاوز حدود القوانين والضوابط القواعدية إلى دلائل ذات بعد عميق، قد يعتريه حب الخير للباحثين، أو تنبيهاً لغفلتهم عن الإفادة من هذا المؤتمر. وهذه الدراسة تحاول - من خلال أحد أبواب النحو - أن تقدم أنموذجاً للربط بين علم النحو وعلم النفس، والنظام الاتصالي الذي يربطهما ببعض. وقد اخترت لها "باب النداء"؛ لأنه من أبرز الأساليب العربية ذات البعد النفسي بين الملقي(الرسالة) والمتلقي، ومن أوضح الأساليب التي تنبئ عن حالهما، وتراعى هذه الحال فيه, استعمالا ظاهرا ومقدرا. وهو معين على معرفة شخصية المتكلم والمخاطب، والظروف المحيطة بهما، والعلاقة التي تجمع بينهما.

و قد تمَّ اختيار هذا الأسلوب ليكون مجال هذه الدراسة؛ لظهور الجانب النفسي فيه أكثر من غيره من أبواب النحو؛ ولكثرة خروجه عن القاعدة النحوية إلى مقاصد أخرى.وهو أسلوب يحمل شحنات نفسية من الانفعالات والعواطف لكثرة ما فيه من دلالات، ومعانٍ لا يمكن الكشف عنها وتفسيرها من غير الاعتماد على علم النفس اللغوي, فالمنادِي والمستجيب فيه مدفوعان بمثير قوي يعده علماء السيمياء علامة مهمة من علامات التواصل الإنساني اللساني؛ وذلك لأن الإثارة يجلبها حرف النداء تنبئ عن إحساس المنادِي بالمثير, وما يصاحبه من توتر أو قلق أو خوف أو فرح أو حزن, وكلها انفعالات تحدث ردود أفعال من المنادَى قد تكون لسانية وقد تكون بدنية أو تعبيرات خارجية تظهر في شكل تصرفات مختلفة تعبر عن نوع الحالة الانفعالية والتفاعلية بين المنادِي والمُنَادَى. ومما يؤكد هذا الانفعال والتفاعل أن المنادِي أحيانًا كثيرة يكون متوجها إلى المتلقي مقبلاً عليه بلغة مصاحبة لكلامه المنطوق, وهي لغة الجسد أو الحركات البدنية, وهذا ما أشار إليه عدد من الباحثين الغربيين, ومن أبرزهم:ستوكو(stokoe), وبيلوغي وفيشر(bellugi and fsher),وبيكر(baker) وغيرهم ([31]).

ولعلي - من خلال المحاولات التي سأقتصر فيها على أمثلة انتقائية تكشف السلوك والأثر النفسي لهذا الأسلوب على الاستعمال - أميط اللثام عن العلاقة بين العلمين (علم النفس وقواعد العربية)، متجافياً عن التفصيلات الدقيقة، والخلافات العميقة في الباب، فذلك جهد أسهب فيه علماء العربية قديماً وحديثاً .

ولقد وجدت أبحاثاً محدودة تتناول أسلوب النداء، ولكنها لا تتطرق للجانب النفسي فيه إلا لماماً، ومن أبرزها:

- أسلوب النداء وجمالياته عند النحاة والبلاغيين للباحث/ عادل نعامة، رسالة ماجستير - جامعة تشرين - سوريا.
- النداء في اللغة والقرآن، تأليف أحمد محمد فارس 1989م.
- الأدوات المفيدة للتنبيه في كلام العرب، تأليف/ فتح الله صالح المصري.
- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، تأليف/ قيس إسماعيل الأوسي.

([31]) انظر lyddel,scott,americen sign language, mouton publishers - the hague, 1980p.2. paris - new york,

وجاءت هذه المحاولة – التي سبقتها بعض المحاولات في غير النداء -[32] لتكون لبنة في بناء العلاقة بين الدراسات النحوية والدراسات النفسية، وتجسيراً للفجوة بينهما. وهي – مع غيرها - محاولة للفت الأنظار إلى تجاوز دراسة النحو للقاعدة وما يرتبط بها من عوامل وعلل وأقيسة ونحوها - وهو ما يهتم به هذا العلم وعلماؤه - إلى دراسته من منظور نفسي يعين - فيما نحسب - على الإسهام في تيسير القواعد، وعلى قبولها والإقبال عليها[33].وقد تقود هذه المحاولة - مع غيرها - إلى محاولات تخرج من إطار النظرية النحوية المجردة إلى أبعاد أوسع، أضحت اليوم من صميم الدراسات اللسانية المعاصرة، تجمع بين القاعدة والبعد الدلالي والاجتماعي والنفسي، مما مسّه النحاة العرب مسّاً خفيفاً، فجاء في كلامهم ظاهراً حيناً، وكامناً أحياناً كثيرة.

وارتأيت أن يتناول هذا العمل أربعة مطالب مسبوقة بمقدمة ومتلوة بخاتمة،على النحو الآتي:

- **المطلب الأول**: أسلوب النداء بين علم النفس وقواعد النحو.
- **المطلب الثاني**: الجانب النفسي لمعنى النداء ولدلالة أدواته.
- **المطلب الثالث**: الجانب النفسي للحذف في أسلوب النداء.
- **المطلب الرابع**: الدلالة النفسية لخروج النداء عن أصل معناه.

سائلا الله العون والسداد والتوفيق والرشاد.

---

[32] نشرت مجلة الدراسات اللغوية (المجلد السابع، العدد الثالث 2000م) بحثاً بعنوان:"الجانب النفسي في حذف عامل المفعول بـــه" للدكتور علي محمد نور المدني، كما نشر الباحث نفسه بحثا بعنوان:"البدل في الجملة العربية، دراسة في ضوء علم اللغة النفسي" مجلـــة مجمع اللغة العربية، العدد 86 نوفمبر 1999م.

[33] للباحث بحث بعنوان "محاولات التيسير النحوي دراسة تاريخية تحليلية" – مجلة جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

المطلب الأول: أسلوب النداء بين علم النفس وقواعد النحو

أسلوب النداء من الأساليب البكر؛ لأن النحويين والبلاغيين واللغويين طرقوه لماماً، ومسوه مساً خفيفاً. وإن تفوق البلاغيون قليلاً، إلا أنهم - جميعاً - شغلوا أنفسهم بالجوانب الإعرابية والتركيبية، والدلالية اللغوية فيه، ولم يتعرضوا للنواحي النفسية، ولا للحوافز اللغوية الغرزية الكامنة فيه إلا ما قلَّ من إشارات عابرة يصعب أن تدرج تحت ما يسمى بـ (علم اللغة النفسي)، ولم يتوقف أحد منهم –كثيرًا - عند تفسير معناه، وإيحاءاته، أو يتعرض للمعاني العميقة لاستعماله، فبقي الباب، أو الأسلوب مجرد نظرات نحوية، وآراء قواعدية، تعتمد المنطق النحوي الصلد، وتتكئ على علله وتقديراته؛ بل لم يشيروا - فيما اطلعت عليه - إلى أن هذا الباب هو أقرب أبواب النحو إلى لغة الإنسان وأعلقها بطبعه، وأدناها إلى مشاعره وأحاسيسه؛ لأن الأصل فيه أن يكون أصواتًا خاطفة، وعبارات قصيرة معبرة عن طلب الإقبال والتنبيه، فهو صوت يطلقه الإنسان حال خوفه، أو ألمه، أو فرحه، أو دهشته، أو وعيده، أو تأنيبه، أو طلب الإقبال عليه... إلخ، وبذلك فهو يختلف باختلاف الحالة التي تواجهه، وحدة العاطفة التي تنتابه.

يقول عبدالقاهر الجرجاني:"إن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق، بسبب ترتيب معانيها في النفس"[34].

فالعمليات الذهنية الانفعالية تتفاوت ظهوراً وخفاء، وشدة وضعفاً في تحريك مشاعر المتكلم والسامع، فيأتي النداء أحياناً مرافقاً بإشارات اليدين أو ملامح الوجه، أو حركات أعضاء الجسم، وهذا التفاوت يرجع إلى عوامل تتعلق بالمتكلم وأحياناً بالسامع، وتتضح من خلال النبر والتنغيم، وطريقة أداء الجملة، فالكلمات التي تعبر عن الخضوع والتذلل نحو (يا رب) غير الكلمات التي تعبر عن الاحترام والتقدير كما في نداء الصحابة للرسول ﷺ، أو في ندائنا للمفتي: يا سماحة الشيخ، وهي غير كلمات السخط والغضب حينما نزجر أبناءنا عن فعل ما، فنقول:يا محمد، لماذا فعلت هذا؟ وتتجلى المفارقة في الأداء الحواري، فحينما أقول بنبرة هادئة لمحاوري:(يا أخي الكريم ينبغي أن نصل إلى وجهة نظر موحدة) - ليست كما إذا قلت له بنبرة غضب:(يا أخي أنت لا تفهم ما يقال لك؛ ولذلك لا يمكن أن نصل إلى وجهة نظر موحدة) فالعلاقة بين المتكلم والمتلقي تؤثر نفسياً على الأساليب المستخدمة، فكلما كانت العلاقة إيجابية كان القبول النفسي لمراد المتكلم أكثر، والعكس في حال العلاقة السلبية.

وحينما أقول: إن النحويين لم يقفوا -كثيراً - عند الجانب النفسي لهذا الأسلوب لا يعني أنهم لم تكن لهم جهود، ومحاولات، وإشارات إلى بعض الجوانب النفسية في هذا الأسلوب وفي غيره من أساليب العربية، كالاستثناء، والاستفهام، والتعجب، والتقديم والتأخير، ونحوها، ولكن يعني أن دراساتهم اتسمت بسمة الاتجاه إلى المبنى أساساً، والاهتمام بالجانب اللفظي، وما له علاقة بوظائف التركيب[35].

وتناولهم اليسير، وإشاراتهم النفسية الخفيفة لبعض الأبواب النحوية لا تجعلنا نزعم أنهم سبقوا في تناول العلاقة بين علم النفس وعلم النحو، كما لا نزعم أنهم لم يكن همهم الأول صياغة الكلام وضبطه، وإيجاد القواعد المعيارية له، وإنما كان الربط بين العلمين؛ لأن تلك مبالغة تبناها

---

[34] دلائل الإعجاز 60/1

[35] اللغة معناها ومبناها، ص12، 16.

بعض الباحثين، مثل قول أحدهم - مبالغاً في ربط سيبويه السياق اللغوي بحال المخاطب والظروف المحيطة بالمتكلم والمخاطب - :"وتلقانا في (الكتاب) أمثلة كثيرة من الجمع بين التفسير اللغوي النحوي، وملاحظة السياق. وذلك حيث نرى سيبويه يقف عند تراكيب مخصوصة فيردها إلى أنماط لغوية مقررة، ويقدر ما يكون عرض لها من الوجهة اللغوية الخالصة، من حذف أو غيره، وفق نظرية العامل، ولكنه لا يقف عند ذلك فحسب؛ بل يتسع في تحليل التراكيب، ووصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها، وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب، وحال المتكلم، وموضوع الكلام... فرسم خطوطاً هادية في تعلم العربية، وعرف لكل مقام مقال..."[36].

وإذا كنا نرى أن هذه مبالغة فلا ندعي - في ذات الوقت - أن النحو العربي لم يهتم بالمعنى[37]، ومقتضى الحال، والظروف الاجتماعية والنفسية المؤثرة في فن القول، ونزعم حصر اهتمامه في الصياغة، وضبط أواخر الكلمات في الجملة العربية، فتلك مغالطة أيضا؛ لأن اللغة مهارة سلوكية نفسية للتعبير عن العواطف والحاجات بألفاظ وتراكيب مختلفة، محكومة بدوافع نفسية، ولكنها مقيدة بقواعدها النحوية والصرفية والصوتية والدلالية، والسلوك النفسي لا يصدر إلا عن دوافع، والدوافع قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية، وتكون شعورية أو لاشعورية، فاللغة تواصل، والتواصل ليس مقصوراً على العلاقة الظاهرية بين المتكلم والسامع فحسب؛ بل هناك عامل آخر غير ظاهر، هو الجانب النفسي[38]. كما أن المعنى النفسي يتبلور في القوالب اللغوية بتركيبها، وترتيبها، وارتباط بعضها ببعض في السياق اللغوي، وفق مقتضيات المعاني النحوية على الوجه الذي أقام عليه الشيخ عبدالقاهر كثيراً من دلائله.

وإذا عدنا إلى النداء في صنيع النحاة نجد أن سيبويه حاول أن يشير إلى الصلة بين النحو ومقتضى الحال للمتكلم ونفسيته من خلال حديثه عن استعمال أدوات النداء ومواطنها، ومعانيها، والتناوب في استعمالها، فقال:"هذا باب الحروف التي ينبه بها المدعو، فأما الاسم غير المندوب فينبه بخمسة أشياء: بـ(يا) و(أيا) و(هيا) و(أي) وبالألف، نحو قولك: أحار بن عمرو، إلا أن الأربعة غير الألف قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم، والإنسان المعرض عنهم، الذي يرون أنه لا يقبل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل. وقد يستعملون هذه التي للمد في موضع الألف، ولا يستعملون الألف في هذه المواضع التي يمدون فيها، وقد يجوز لك أن تستعمل هذه الخمسة غير (وا) إذا كان صاحبك قريبا منك مقبلا عليك توكيدا..."[39].

كما تحدث سيبويه عن خروج النداء إلى معان أخرى، كالندبة، والاستغاثة، والتعجب، والاستهزاء، وغيرها[40].

وقبل أن أتحدث عن هذا الأسلوب –في المطالب القادمة - لا بد أن أتحدث عن بعض الأمور التي تتعلق بعلم النفس اللغوي، ومن أبرزها ما يسمى بـ(الإدراك)، وهو الوسيلة التي يتصل

---

(36) نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ص97.

(37) يقول عبدالقاهر الجرجاني:"إن الخبر وجميع الكلام معانٍ ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع بها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض" دلائل الإعجاز، ص345.

(38) انظر الجملة العربية والمعنى، ص7، أصول علم النفس، 108، 109، الجانب النفسي في حذف المفعول به، مجلة الدراسة اللغوية، المجلد السابع، العدد الثالث 150.

(39) الكتاب 229/2.

(40) المصدر السابق 215/2، 218.

بها الإنسان مع بيئته[41]. والبيئة في مقامنا هذا هي البيئة اللغوية بمكوناتها الأربعة: كلام منطوق، ومرسل، ومستقبل، وسياق، ولكي يتم الاتصال الصحيح يجب أن تتوافر العوامل المنظمة للإدراك[42]. وقد تنبه الجاحظ لهذه الجوانب، فقال:"وينبغي أن يعرف المتكلم أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين... فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات..."[43].

وإذا أردنا أن نطبق هذه العوامل على أسلوب النداء، نجدها تتجلى من خلال تحليلنا للأسلوب الندائي الآتي، الذي يلقيه الأستاذ على أحد طلابه، حينما يكون الطالب يكتب الإجابة في الاختبار، ويحاول الالتفات، أو الحديث مع غيره: يا رائد لا تنظر إلى زميلك[44].

فبتحليل هذا الموقف تحليلاً نفسياً لغوياً باستحضار العوامل التي لا يتم الإدراك إلا بها، نقول:

أ) وجود قوة مناسبة للمنبه (المثير), تتمثل في ارتكاب الطالب مخالفة سلوكية، وهي كافية لاستثارة المعلم لنداء الطالب بنبرة انفعالية، تجعل الطالب يدرك حقيقة الخطأ الذي وقع فيه، مما حرك جملة من الانفعالات لديه تتمثل في خشيته من حرمانه من الاختبار، أو إلغاء ورقة اختباره, أو إخراجه من قاعة الاختبار. فنبرة الأستاذ، واستخدام النداء، واستعمال (يا) الندائية التي تستعمل للبعيد –على الرغم من قرب الطالب - كلها منبهات قوية تحمله على تلقي النهي مقدرا إياه بمقدار ما يحمل من شحنة انفعالية تحذيرية.

ب) سلامة الحاسة السمعية المستقبلة. فلكي يدرك الطالب الرسالة لا بد أن تكون حاسة السمع عنده قادرة على العمل؛ ليتلقى تحذير الأستاذ ونبرة صوته، ندائه له بغضب؛ كي لا يكرر ما فعل.

ج) وجود خبرات وتجارب سابقة تكشف نتيجة هذا الموقف. فالطالب يستحضر من خلاله نبرة صوت الأستاذ، وتخصيصه بالنداء في زمن أداء الاختبار، حالات سابقة لزملاء له أدت إلى حرمانهم من الاختبار، أو رسوبهم في المادة.

د)عوامل موضوعية تتعلق بالشيء المدرك: وهي خطورة الموقف والفعل الذي فعله أو همَّ بفعله الطالب.

هـ)عوامل شخصية تتصل بالمدرك (الطالب): وهي ما اعتراه من خوف أو خجل أو أسف حينما ناداه أستاذه باسمه صريحاً، وبنبرة حادة، وبلغة جدٍّ تعبر عن الامتعاض من الفعل.

إن هذه العوامل هي التي تتفاعل مجتمعة لتؤثر تأثيراً بالغاً في إدراك حقيقة النداء، فهو ليس لمجرد التنبيه، وإقبال المنادى ذهنياً، بل هو تحذير وتنبيه وتأنيب وتقريع، وتخويف، ونحو ذلك[45].

---

[41] علم النفس التربوي ص467.

[42] أصول علم النفس العام، ص200.

[43] البيان والتبيين 97/1.

[44] أجرى أحد الباحثين تحيلا على أسلوب الاستفهام وطبقه على مثال مشابه لما هنا.انظر السلوك الانفعالي في أسلوب الاستفهام، علي محمد المدني، ص7.

[45] انظر في عوامل الإدراك: أصول علم النفس العام 200.

أسلوب النداء، إذن، أسلوب يلجأ إليه المتكلم لهدف اجتماعي ونفسي ينبه، أو يحرك، أو يحذر المتلقي، أو يتعجب أو يستغيث، أو يتوجع، أو نحو ذلك، وهو أسلوب يزداد قوة وروعة وطرافة وسحراً حينما تتضح مراميه وتتجلى مقاصده ودلالاته – كما سنوضح لاحقاً - ويدل على ذلك أنّ العبارة التحذيرية التي قالها الأستاذ للطالب حينما يتناقلها الطلاب ويرويها زملاء الأستاذ لبعضهم تتحول إلى مجرد حكاية خالية من أي مؤثر, وبعيدة عن خوف الطالب, وانفعال الأستاذ, واستحضار الموقف, فتفقد كثيراً من قيمتها الدلالية والنفسية, ويضحي استخدام النداء فيها استخداماً لفظياً مجرداً. وهذا يعني أنّ قوة الكلام وتأثيره يكمن في الارتباط بين الكلام والمقام الذي قيل فيه, وهو ما يتحدث عنه البلاغيون كثيراً, ويتناوله النحويون فيما يعرف بالحال المشاهدة.

وأسلوب النداء ليس أسلوباً خاصاً بنداء العاقل، فقد يأتي لنداء غير العاقل، فينادي الشعراءُ الطيرَ, والسحاب, والقمر, والشجر, والليل, والديار، كما ينادي الإنسان - أحياناً - بعض أجزاء جسده أو نفسه وعواطفها من حب وبغض وحسرة ولذة. فها هي الخنساء تنادي عينها طالبة منها أن تكثر الدمع حسرة على الفقيد الغالي (صخر)، فتقول:

ألا يا عين فانهمري بغزر وفيضي عبرة من غير نزر[46]

بل يجرد من نفسه - في بعض الأحيان - إنساناً آخر، يناديه، لينصحه أو يحذره، أو يطمئنه، أو يشجعه، أو يسليه ويسري عنه ما يجد، وما كل هذا إلا حديث نفس نطقت به أعضاء نطقه ليكون أشد أثراً، وتبليغاً للغاية مما لو اقتصر على أن تكون مجرد خواطر أو مشاعر ساكنة مقبورة داخله، والأمثلة على ذلك كثيرة، كقول المنادي في تشجيع نفسه:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي.....

وقول الخنساء في الحث والعتاب:

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى[47]

ومن ينعم النظر في كتاب الله العزيز يجد أن الله – سبحانه - نادى الأرض والسماء والنار والويل والجبال والطير والنفس والحسرة، وكلها نداءات ذات طابع نفسي، ولكل حالة من هذه الحالات أداة نداء معينة، وأسلوب، ونبرة تعبير، وتركيب ندائي خاص. ولا يمكن أن تُجَلَّى إلا من خلال الربط بين القاعدة النحوية وسلوك المتكلم والمستمع، ودوافع كل واحد منهما، وحالته النفسية أثناء الكلام والاستماع.

---

[46] شرح ديوان الخنساء، ص92.

[47] المصدر السابق، ص70.

المطلب الثاني: الجانب النفسي لمعنى النداء ودلالة أدواته:

النداء في الاصطلاح النحوي[48] هو: تنبيه المدعو ليقبل عليك[49]، أو : "التصويت بالمنادى ليعطف على المنادي"[50]. وهو في الاصطلاح البلاغي: طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة[51].

وبتأمل هذه التعريفات الاصطلاحية - النحوية والبلاغية - نجد أنها تشكل صلة وثيقة بين المتكلم والمخاطب، وهذه الصلة تدفعها وتحركها منبهات مثيرة تتكئ على مجموعة من العلاقات التي ترتبط بنسيج متشعب من المشاعر والانفعالات النفسية، والأحاسيس، والصور. ففيها (تنبيه) و(إقبال) و(تصويت) و(عطف) و(طلب) و(داعٍ) و(مدعو)، وهذه العناصر حينما يستخدمها المخاطب تكون معيناً له على بناء جسر للتواصل المقنع بينه وبين مخاطبيه الذين يحرص على انخراطهم معه في التسليم بما سيلقى عليهم.

وإذا كان الكلام كله يقال بدوافع نفسية فإن النداء –في الاستعمال اللغوي والأثر النفسي - أوضح الأساليب صوتاً، وأكثرها أثراً؛ لأنه يحوي أكثر من دلالة، كدلالة العذوبة في الصوت، والقوة الموصلة للغرض بالنبرة، والجاذبية المؤثرة للانتباه، والاختصار الذي يتناسب مع الحال؛ لأنه مفعول به لفعل محذوف، وغيرها. والعلماء يرون أن "شيوع اللفظ الواحد المختصر يزرع الوقع في الأذن فتألفه، والدلالة في الأذهان فتعرفه، فحينئذ تجد الراحة، والنطق المختصر فتعدل عن النطق التام"[52].

أما أدوات النداء ودلالاتها فهي حروف تختص بالدخول على الاسم المنادى؛ بغرض التنبيه، وطلب الإقبال، وتدل على المفعول به المحذوف أو تنوب عنه، وهي (يا، أيا، أي، الهمزة، وا)، وزاد بعضهم حرفين هما:(أ) و(آي).

هذه الحروف السبعة يجمعها معنى واحد - بشكل عام - وهو معنى نفسي يتمثل في (التنبيه)، وهو ما أشار إليه سيبويه[53].

وإذا كان النحويون قد انشغلوا بتبيان أقسام المنادى، وأحوال توابعه، وانصب جهدهم على حكمه الإعرابي فإنهم لم يغفلوا المعاني السياقية الأخرى على الإطلاق –ولكن لم يمنحوها الجهد الكافي – كما أوضحنا سابقا - فذكر النحويون أن لكل أداة استعمالاً معيناً تفرضه العلاقة النفسية والاجتماعية والزمانية والمكانية بين المتكلم والمخاطب، ويمكن لنا أن نقف[54] على ذلك وفق ما يأتي:

---

[48] عزفت عن الإطالة في معنى النداء لغة واصطلاحا، واقتصرت على ما هنا؛ لأن البحث ليس متجها للنداء بخاصة.

[49] انظر الأصول 401/1، شرح المفصل 120/8.

[50] شرح المفصل 118/8.

[51] انظر عروس الأفراح 333/2.

[52] أثر التأويل النحوي في فهم النص، ص30.

[53] انظر الكتاب 229/2.

[54] آثرت ألا أكثر من أقوال النحويين وخلافاتهم في دلالة كل حرف، وإنما أكتفي بالأشهر والأظهر.

1 - (يا): وهي أكثر حروف النداء استعمالاً، وأشهرها ذكراً؛ ولذلك تسمى (أم الباب)، وبتأملها نجدها تنتهي بحرف المد (الألف)؛ لذلك تستعمل في نداء البعيد؛ لإمكان امتداد الصوت، ورفعه بها[55]. ومعلوم أن أصوات المد أصوات مجهورة ينفتح لها مجرى الهواء في الجهاز النطقي، فتخرج دون إعاقة أو حفيف؛ ومن ثم فهي أكثر وضوحا مع امتدادها وطولها. وأرجح الأقوال أنها لنداء البعيد حقيقة أو حكماً[56]. فهي قد تستعمل لنداء الساهي والنائم والغافل تنزيلاً له منزلة مَنْ بَعُدَ؛ لأنهم يرون أنه لا يقبل إليهم إلا بالاجتهاد في رفع الصوت، ومده[57]. فالأداة تفيد التنبيه أصلاً، وتفيد النداء عرضاً من خلال الفعل المقدر بعدها، يقول ابن جني:"(يا) في النداء تكون تنبيهاً ونداء في نحو: يا زيد ويا عبدالله..."[58].

ويرى أكثر العلماء أن استعمالها للقريب يأتي لغرض لفظي وهو التوكيد؛ لأن الغرض النفسي حاصل أصلاً، يقول الزمخشري:"(يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد، وصوت يهتف به الرجل لمن يناديه... فإذا نودي به القريب المُقَاطِن فذلك للتأكيد المؤذن بأنَّ الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جداً " [59]. ولكن قد ينَّزل القريب منزلة البعيد لغرض نفسي، يقول الزمخشري –أيضا - :"فإن قلت: فما بال الداعي يقول في جُؤاره[60]: يا رب، ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأَسْمَعُ به وأَبْصَرُ؟ قلت: هو استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها من مظانِّ الزلفى، وما يقرِّبه إلى رضوان الله، ومنازل المقربين. هضماً لنفسه، وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله، مع فرط التهالك على استجابة دعوته، والإذن لندائه وابتهاله"[61]. وبالرغم مما يشعر به كلام الزمخشري من أن البعد هنا ليس بعد المنادى، وإنما هو إحساس من المنادي بأنه هو البعيد من منادى يجب عليه أن يقبل، ويكون قريبا منه - إلا أن البعد ليس بعداً حقيقيا وإنما هو بعد مجازي لكثرة التفريط والتقصير.

ويسمي بعض العلماء المعاني النفسية التي تدل عليها (يا) عند خروجها من الدلالة على نداء البعيد - نكتاً، وهي كلها معانٍ تحمل شحنات نفسية مختلفة في نوعها، وفي مستوى حدتها، وفي ردود الأفعال تجاهها، وذلك بحسب ما يقتضيه المقام، كما أن أكثر هذه المعاني أو النكت – كما يسميها البلاغيون - لها صلة وثيقة بالانفعالات الإنسانية الأساسية، كالتعظيم، والتحقير، والحرص، والاهتمام، وغيرها.

واستعمالاتها وأساليبها هذه لا تكشفها القواعد النحوية المجردة فحسب، ولا الأساليب البلاغية وحدها، وإنما تتجلى من خلال التتبع النفسي، والتحليل السلوكي للمتكلم ومستوى صوته، وحركات جسده المصاحبة للكلام، ولغة وجهه المعبرة عن حالته الانفعالية، وغير ذلك مما لا

---

(55) انظر الكتاب 299/2، 320، المقتضب 333/4، شرح المفصل 118/8، رصف المباني 513، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين 422.

(56) انظر رصف المباني، المغني 373/2، الهمع 35/3.

(57) الكتاب 230/2، انظر رصف المباني 513.

(58) الخصائص 196/2.

(59) الكشاف 224/1.

(60) التضرع بالدعاء

(61) الكشاف 224/1، 225.

يدركه إلا من شهد الموقف؛ لأنها انفعالات، والانفعالات لا يمكن قياسها بدقة، ولا تسجيل مستوياتها من خلال الألفاظ والأساليب فقط.

وللتدليل على ذلك يحسن - هنا - أن نأخذ نصين استعملت فيهما أداة النداء (يا) لنتبين الجوانب النفسية والجمالية واللغوية لأسلوب النداء بها، والقيمة التعبيرية التي تؤديها هذه الأداة.

أ) قوله تعالى: **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}**[62]. فبتأمل الآية نشعر شعوراً متزايداً بالعطف والتحنن؛ لأن الوتيرة الإيقاعية توحي بالتفاؤل والرحمة والمغفرة، مبنية على نسق صوتي متناغم من خلال استعمال أداة النداء (يا) دون سائر أخواتها؛ لما فيها من مد الصوت الموجه إلى العباد على كثرتهم، وتعدد ألوان معاصيهم وسيئاتهم، وكأن في هذا المد بسطاً لمظلة المغفرة ورحمة الله التي وسعت كل شيء. في كلمة العباد المضافة إلى ضمير الجلالة (الياء) ليعطي إيحاءات تحقق للنفس ارتياحها وهدوءها، فكل الجملة الندائية لها قيمة تعبيرية، وأداء معنوي وتركيب لفظي، وإذا تعانقت هذه الأبعاد أحدثت سلاسة في التعبير، وأثراً في النفس، وجمالاً في الأسلوب.

ب) قال أبو فراس الحمداني:

يا فارج الكرب العظيـ ـم وكاشف الخطب الجليل
كن يا قوي لذا الضعيـ ـف ويا عزيز لذا الذليل
قرِّبه من سيف الهدى في ظل دولتـه الظليـل[63]

فالشاعر لم يكن بمقدوره إلا أن يرفع صوته مستغيثاً بالله، مستصرخاً بأداة النداء (يا) مضيفاً المنادى إلى الكرب تعظيماً له وتوضيحاً لقدرته على كشف الخطوب وتفريج الكروب، فاختياره لـ (يا) دون سائر أخواتها يعطي فرصة لمد الصوت وبث المعاناة، ولكنها تؤدي إلى نداء قريب في حقيقته بعيد في رفعته وشأنه ومكانته. وفي كل حرف من حروف التركيب أو الأسلوب الندائي الإضافي قدرة على التعبير عن الألم والمعاناة، فتتكرر الجمل الندائية لتستطيع أن تصل إلى حد التأثير القوي في أعماق السامع أو المتلقي، ولتخفف أيضاً على المتكلم ما أثقل صدره من أوجاع وشكوى، فالنداء بأركانه المختلفة قادر على أن يصور الحركة النفسية والتوترات الانفعالية داخل نفس الشاعر، وهذا هو الغرض من النداء أداة وأسلوباً متكاملاً.

2 - (أيا):وهي لنداء البعيد؛ والدليل على ذلك ما فيها من مدً الصوت، وهو مد أكثر منه في (يا) ليبلغ الصوت مداه ويصل إلى مسامع المنادي[64]. وذكر بعضهم أنها تستعمل للنائم المستثقل ؛ لأنه في حكم البعيد، أو المتراخي عنك[65]. وذهب المبرد إلى أنها لنداء البعيد مسافة أو حكماً... لما فيها من مدِّ الصوت[66]. وقد تأتي للقريب لغرض معين داخل نفس المتكلم، جاء ذلك في قول ذي الرمة:

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنت أم أم سالم[67]

---

(62) الزمر 35.

(63) ديوان أبي فراس الحمداني، ص268.

(64) انظر الكتاب 230/2، شرح المفصل 118/8/15/2، المرتجل ص191، شرح الكافية 381/2، رصف المباني 215..

(65) انظر المقرب 175/1، الجنى الداني 419.

(66) المقتضب 235/4.

(67) ديوان ذي الرمة 700.

فاستعمل ذو الرمة (أيا) لنداء القريب؛ لأنه تخيل أن لا مسافة تقطع بينهما, فاحتاج الأمر إلى النداء بـ(أيا) دون غيرها من أدوات النداء، فالعامل النفسي دعاه، بل أوجب عليه اختيار (أيا) بدل الهمزة أو غيرها من أدوات نداء القريب, وعلى الرغم من أن الظبية لا تكون إلا بعيدة من حيث الحس؛لتوحشها وعدم أنسها بالناس إلاَّ أنَّ الشاعر - بدافع نفسي - يشعر أنها قريبة منه حتى أنه لم يفرق بينها وبين أم سالم.

ومن خلال بيتين لعنترة نستجلي الجوانب النفسية لاستخدام (أيا)، قال:

أيا عبلُ ما كنت لولا هواك قليل الصديق كثير الأعادي

أيا عبلُ مُنِّي بطيف الخيال على المستهام وطيب الرقاد[68]

فاستخدم عنترة (أيا) في البيتين راغباً في مد صوته؛ تعبيراً عن إحساسه الأليم، وتظهر جلية العلاقة بين مد الصوت - إحساساً ببعد عبلة عنه - والإحساس بالألم والقلق الذي يختلج في نفسه، ويحتاج إلى أن يبلغ صوته كل مدى لعله يصل عبلة أو يؤثر فيها. وفي قصيدة أخرى تحضر (أيا) عند عنترة، فيقول:

أيا صادحات الأيك إن مت فاندبي على تربتي بين الطيور السواجع[69]

فلم يمنع عنترة قربه من صادحات الأيك - وقت إنشاده - من استعمال (أيا) التي تستعمل للبعيد عادة؛ لأننا ننزلها منزلة البعيد؛ لإحساسه بأن الظلم والقلق قد أبعداه عن نفسه بعداً يناسب استعمال (أيا) في ندائه تعبيراً عن الحالة الشعورية النفسية التي ملأت نفسه، ولم يكن أمامه بد من أن يرفع صوته ويمد النداء ليخفف وطأة الألم والظلم.

3 - (هيا): هي مثل (أيا) في المعنى والدلالة غير أن ابن الخشاب قال: و(هيا) لما هو أبعد من المنادى بـ (أيا) و(يا) [70]. وبعض العلماء يرى أن أصلها (أيا) أبدلت الهمزة (هاء)، وذهب بعضهم إلى أن أصلها (يا) أدخلت عليها (هاء) التنبيه مبالغة[71]. وكل ما قيل من نصوص وشواهد وأبيات وردت فيها (أيا) يمكن أن ترد فيها (هيا)، غير أنني أذكر بيتاً للحطيئة، وهو قوله:

وقال: هيا رباه ضيفٌ ولا قِرَى بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما[72]

والمتأمل لهذا البيت، يجد وضوح الأسلوب، وكأنه حديث نفسي عابر لا تكلف فيه، ولا زخرف له، لكنه استعمل أداة نداء تعبر عن حالته النفسية، وهي (هيا) لما فيها من مد الصوت؛ كأنه قد اختار (هيا) المبدوءة بالهاء، وهي صوت ضعيف - كما يقول علماء الأصوات - لتناسب إحساسه بالضعف أمام نفسه، فناسب ضعف الهاء ضعفه في عدم وجود قرى للضيف عنده، ثم إنَّ في الهاء ما يشبه نفسه المكروب المتأوه، غير أن صلتها بـ(يا) جاءت للإشعار بأن المنادي رفيع القدر عظيم الشأن، فتأخذ الأداة مداها في الارتفاع، وهو ارتفاع ضروري في هذا الموقف الذي يبث فيه الشاعر شكواه، ويعبر عن آلامه باحثا عن مخرج. فـ(هيا) استخبر بها الشاعر في هذه

---

[68] ديوان عنترة 24.

[69] ديوان عنترة 29.

[70] المرتجل 197.

[71] انظر شرح المفصل 118/8، 119، الجنى الداني 507.

[72] ديوان الحطيئة 396.

المواقف النفسية الصادقة والمعاني الوجدانية المتزايدة التي تنبع من الموقف الانفعالي الذي وقع فيه هذا القائل.

4 - (أي) وهي أداة لنداء القريب[73]، ويفرق ابن الخشاب بينها وبين الهمزة, فيرى أن الهمزة لما هو أقرب[74]. وفيها تنبيه للقريب، وليس فيها مد للصوت؛ لأن الياء الساكنة لا تعين على ذلك، فهي قصيرة المسافة التي تكون بين المنادِي والمنادَى. واستعمالها للقريب يكون حقيقة وحكماً. وقد ورد استعمالها في قول كثير عزة:

ألم تسمعي أي عبد في رونق الضحى بكار حمامات لهن هدير[75]

في البيت أسلوبان إنشائيان هما الاستفهام والنداء، والأسلوب الإنشائي في نظر علم اللغة النفسي يتميز بروح حوارية ترتفع معه النغمة الصوتية المعبرة عن النشاط الانفعالي النفسي. ولعل من أبرز ما يميز النداء هنا التناغم بينه وببين الاستفهام، فاستخدام الاستفهام في غير معناه الحقيقي يحمل شحنات نفسية مختلفة في نوعها، وفي مستوى حدتها، واستعمال النداء بـ (أي) ذات الدلالة القريبة يحمل مظهراً انفعالياً نفسياً مهماً، واضطرابات ورعشات خفية في نفس الشاعر.

وبعضهم يستعمل (أي) بهمزة مفتوحة ممدودة، وسكون الياء[76] (آيْ). وتستعمل حينئذ لنداء البعيد؛ لأن المد دليل على بعد المسافة، وأن السامع بعيد بحيث لا يسمع النداء.

5 - الهمزة: وهي أداة نداء تستعمل لتنبيه المخاطب القريب المصغي إليك، الذي لا يحتاج إلى مد الصوت في ندائه[77]. واستحضار الدلالة على القريب، والتنبيه، وعدم الحاجة إلى مد الصوت، كلها أمور يستحضرها المتكلم في نفسه من خلال معرفته للمنادَى (المخاطب)، ويتبين لنا الجانب النفسي في استعمال هذه الأداة من خلال النصين الآتيين:

قال امرؤ القيس:

أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعتي صرمي فأجملي[78]

حيث استخدم همزة النداء للقريب؛ لأنه يرى أنها أقدر وأقوى وأوضح في إيصال رسالته إلى محبوبته، فاستخدامها - وإن لم تكن قريبة منه حسياً - غير أنها قريبة إلى نفسه، كأنها جزء منه، وأسلوب النداء بأداة القرب والترخيم يعبران عن حالة نفسية لدى الشاعر، ويعكسان الإحساس بالأبعاد الوجدانية، ويكشفان خفايا النفس.

ويقول جرير بن عطية، يهجو العباس بن زيد الكندي:

أعبداً حل في شعبي غريباً ألوماً لا أبالك واغتراباً[79]

فنادى بأداة القريب الهمزة؛ لأنه يقصده بذاته؛ أملاً في أن تصل رسالته إلى المهجو (المخاطب) والهجاء سلوك سلبي يسعى المتكلم إلى إسقاطه على المخاطب سريعاً حتى لا يُرْمَى هو به، ولذا يقول عنه علماء النفس: إن الذم والهجاء وغيرهما سلوك سلبي يشكل عملية هجوم لا

---

(73) انظر رصف المباني 213، الجنى الداني 233، الهمع 35/3.

(74) المرتجل 191.

(75) ديوان كثير 474، الجمل للزجاجي ص155، رصف المباني 214، مغني اللبيب 76/1، الهمع 35/3.

(76) شرح الكافية 307/2، رصف المباني 213.

(77) انظر الكتاب 230/2، شرح المفصل 15/2، 118/8، رصف المباني ص142.

(78) ديوان امرئ القيس، ص12.

(79) ديوان جرير 650، الكتاب 339/1، الخزانة 183/2.

شعورية يحمي بها الإنسان نفسه بإلصاق عيوبه ونقائصه على الآخرين بقصد إظهار نفسه وتنزيهها عما قد توسم به[80].

وفي كل الأحوال فالنداء بالهمزة - كما يقول أحد الباحثين - لا ينفصل عن إحساس الشاعر بالقلق الذي يقرب من نفسه ويحاصره، فيستعملها للتعبير عن الشدائد والألم والمعاناة"[81].

ويمكن أن تتحول الهمزة (أ) إلى (آ) بالمد فتتغير دلالتها إلى الدلالة على البعيد نسبياً، وهو أمر يقدره المتكلم، سواء أكان البعد حسياً أم معنوياً.

6 - (وا) وهي أداة تنبيه للندبة؛ فهي لنداء الهالك، ولذلك تقتضي رفع الصوت؛ لأنها لنداء من مات وبَعُد عن محبيه، فيرفعون أصواتهم ليسمعوا جميع الحاضرين، ولا يكتفون بما فيها من مد الصوت فيلحقون الاسم مداً آخر، و(هاء) السكت، مبالغة في مد الصوت؛ لأن الهالك في غاية البعد، قال سيبويه:"لأنهم يحتلطون[82]، ويدعون ما قد فات وبعد عنهم... كأنهم يترنمون فيها، فمن ثم ألزموها المد، وألحقوا آخر الاسم المد مبالغة في الترنم"[83].ومد الصوت - هنا - يؤدي جانبًا نفسيًّا مهمًّا يتعلق بالتنفيس عن النفس, وما تعانيه من فراق المندوب.

والندبة لا تحتاج إلى توضيح أو تدليل على الجانب النفسي فيها؛ يقول الرضي:"المندوب منادى على وجه التفجع، فإذا قلت: يا محمداه، فكأنك تناديه، وتقول له: تعال؛ فأنا مشتاق إليك. أو التوجع، نحو: وا ويلاه، وا ثبوراه، وا حزناه.." [84]. ويتجلى الجانب النفسي من طبيعة من يستعملها ونفسيته، فقد نقل عن الأخفش وابن السراج أن الندبة لا يعرفها كل العرب، وإنما هي من كلام النساء لضعف احتمالهن، وقلة صبرهن[85].

وبما أن الناس جبلت على إظهار الحزن، وقلة الصبر سواء أكانت الفجيعة حقيقية أم حكمية - جاء هذا الأسلوب ليعين الإنسان على ما يلحقه من نوح وغَمٍّ وحزن على المندوب، أو ما يعانيه من ألم - إن كان المندوب متوجعاً منه، وهو عضو - وكل هذه تعبيرات ومحاولات نفسية، وإلا فالمتكلم يعلم أن المندوب لا يجيب، ولا يستطيع أن يزيل الشدة التي لحقته, ففي مد الصوت هنا تنفيس يعين على تحمل الهم والحزن على المندوب. وأمثلتها في الشعر كثيرة جدا، منها قول كثير:

فوا حزنا لمَّا تفرق واسط وأهلُ التي أهذي بها وأحوم[86]

وكقول عنترة:

فوا أسفا كيف اشتفي قلب خالد بتاج بني عبس كرام العشائر[87]

وفي قول المتنبي:

وا حر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم[88]

---

(80) العلوم السلوكية ص39.

(81) أسلوب النداء عند البلاغيين والنحاة، ص23.

(82) الاحتلاط هو: الضجر والغضب.

(83) الكتاب 231/2.

(84) شرح الكافية 131/1.

(85) انظر شرح المفصل 13/2.

(86) ديوان كثير 127.

(87) ديوان عنترة 137.

(88) شرح ديوان المتنبي للعكبري 362/3..

وخلاصة القول - فمع تسليمنا بأن في العربية أساليب محولة عن أصولها, وأدوات مستعملة على خلاف ما تستعمل فيه - فإن في أدوات النداء مظاهر انفعالية تأتي - بحسب ما يناسب المقام - وتفيد في المحصلة النهائية وبأدنى تأمل حملها لشحنات مختلفة في نوعها، وفي مستوى حدتها، يرتفع مدى الصوت معها وينخفض تبعا لمدى العاطفة امتداداً وانحساراً، حتى أضحت كأنها اللجة لها قمة وقاع وبطن وظهر.

إنها أصوات ينطق بها الخائف المذعور، وينادي بها المبتهج المسرور، ويتعزى بها الفاقد المتحسر. ويتفاوت الأثر الانفعالي الذي يحدثه النداء حدة وخفة بحسب السياق والموقف الكلامي الذي يرد فيه، وبحسب طبيعة المنادَى، وكل ذلك يدخل تحت ما يسمى في علم النفس بالمثير[89].

وهنا لابدَّ أن أشير إلى أنَّ من يستقرئ كلام العرب, واستعمال أدوات النداء عندهم - يخلص إلى قاعدة لا تعوِّل كثيرًا على تعليل النحويين الذين يتجاهلون المعنى أحيانا, ويقسرون القليل على أن ينساق مع الكثير أحيانا أخرى.فأداة كـ(يا) تستعمل للبعد, وتستعمل كثيرا في جانب نداء الله - سبحانه وتعالى - فيقال:(يارب), فهي ملائمة لشدة الضراعة التي يحتاج فيها المنادِي إلى أن يمد صوته؛ ليكون فيه نوع من التنفيس عما يجد من ضيق الكرب, وحينئذ نتساءل لِمَ لا يكون زيادة الهاء أو الهمزة في(هيا أو أيا) معنى زائدا على معنى (يا) وحدها؟ ولِمَ لا يفرق بين الدلالة الوضعية لأدوات النداء والدلالة المجازية التي تسوي بين الأدوات أحيانا لاعتبار من الاعتبارات؟ إنه أمر ينبغي الوقوف عنده, وتأمله, وأحسب أن هذا العمل يجيب عن طرف من ذلك.

(89) أسس علم النفس، ص119.

المطلب الثالث: الجانب النفسي للحذف في أسلوب النداء

يتناول علماء النحو والبلاغة واللغة مسألة الحذف في سياق أسلوب النداء، ويُعَدُّ سيبويه من أوائل العلماء الذين أشاروا إلى أن الحذف يأتي في كلام العرب قصداً للاختصار أو لسعة الكلام، قال:"وإنما أضمروا ما كان يقع مظهراً استخفافاً؛ لأن المخاطب يعلم ما يعني، فجرى بمنزلة المثل"[90]. وتبعه كل العلماء.

يرى عبد القاهر الجرجاني أن الحذف خاضع لعوامل نفسية، مرتبط بظروف المنشئ والمستمع: "إنه باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن، وهذه جملة قد تنكرها تخبر، وتدفعها حتى تنظر"[91].

ولكي أقف على الدواعي والآثار النفسية في أسلوب النداء، أقف على بعض صور الحذف في هذا الأسلوب، والآثار النفسية المترتبة على كل صورة، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: حذف عامل المنادى:

أسلوب النداء كلام مستقل بنفسه، يؤدي معنى طلب إقبال المخاطب، قال ابن الخشاب: "إن الحرف لا يستقل به مع الاسم كلام تام إلا في النداء، نحو قولك: يا زيد"[92].

غير أن النحويين شغلوا أذهانهم بتقدير محذوف يعمل النصب في المنادى، ولم يسلموا بالحقيقة التي ذكرها ابن الخشاب. بل إن البلاغيين الذين تحدثوا عن هذا الجانب قدروه، وجعلوا (يا) النداء دليلاً عليه، يقول عبد القاهر:"إنه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً، ولا من حرف واسم إلا في النداء، وذلك إذا حقق الأمر كان كلاماً بتقدير الفعل المضمر الذي هو (أعني) و(أريد) و(أدعو). و(يا) دليل عليه وعلى قيام معناه في النفس"[93]، ومع قيام معناه في النفس – كما يقول عبد القاهر - فإن الواقع " لو تأمل كل متكلم ذلك في نفسه لوجد أنه لا يفكر في هذا المحذوف أبداً، وهو يدرك تمام الإدراك أنه إذا قال: يا عبد الله، فإنه على يقين أنه ينادي عبد الله، من غير أن يشغل نفسه ويشاغب ذهنه ليقدر المحذوف في عقله الباطن... وحذف العامل قبل المنادى أكثر ألفة وشيوعاً؛ لأن النداء في اللغة كثير الاستعمال، والنداء من الأساليب الإنشائية الطلبية التي تصدر غالباً عن انفعال، ولعل هذا الانفعال هو الذي يفسر حذف عامل المنادى؛ لأن المتكلم قد لا يدرك المنادى إذا قال: أدعو أو أنادي زيداً حين يكون زيد منطلقاً على عجل، بل قد يحذف عندئذ حرف النداء ويكتفي بالمنادى"[94]. ويتضح من هذا أن السلوك النفسي يؤثر على شغل ذهن المتكلم والسامع أو عدم شغلهما. وبالتالي يتحكم في التعامل مع القواعد النحوية.

ومما يمكن التنبيه إليه أن تقدير النحويين لفعل محذوف دل عليه حرف النداء, وتقديرهم إياه بـ(أدعو, وأنادي) يخرج أسلوب النداء من الإنشاء إلى الخبر, وهذا الأمر تنبه له ابن مضاء, وانتقد

---

(90) الكتاب 224/1.

(91) دلائل الإعجاز 178.

(92) المرتجل، ص26، 27.

(93) دلائل الإعجاز، ص47.

(94) الجانب النفسي في حذف عامل المفعول به، مجلة الدراسات اللغوية المجلد السابع، العدد الثالث 156/155

النحويين فيه, فقال: "وأما القسم الثالث فهو مضمر إذا أظهر تغير الكلام عما كان عليه قبل إظهاره, كقولنا: يا عبد الله. وحكم سائر المناديات المضافة والنكرات حكم(عبد الله), و(عبد الله) عندهم منصوب بفعل مضمر تقديره:أدعو, أو أنادي، وهذا إذا أظهر تغير المعنى, وصار النداء خبرا"([95]).ثم يبدأ في انتقاد النحويين لتقدير المحذوف, فيقول:"وهذه المضمرات التي لا يجوز إظهارها لا يخلو من أن تكون معدومة في اللفظ موجودة معانيها في نفس القائل, أو تكون معدومة في النفس كما أن الألفاظ الدالة عليها معدومة في اللفظ. فإن كانت لا وجود لها في النفس ولا للألفاظ الدالة عليها وجود في القول, فما الذي ينصب؟ وما الذي يضمر؟ ونسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال.فإن قيل:إن معاني هذه الألفاظ المحذوفة موجودة في نفس القائل, وإن الكلام بها يتم, وإنها جزء من الكلام القائم بالنفس المدلول عليه بالألفاظ ألا أنها حذفت الألفاظ الدالة عليها إيجازا, قيل:لزم أن يكون الكلام ناقصا, وأن لا يتم إلا بها؛ لأنها جزء منه..."([96])

ثانيا:حذف الأداة:

يرى النحويون أن حذف حروف المعاني ليس بالقياس؛ لأنها جاءت اختصارًا أو نائبة عن الأفعال، فـ(ما) النافية نائبة عن (أنفي)، وهمزة الاستفهام نائبة عن (أستفهم)، وحروف النداء نائبة عن (أنادي)، فلو حُذِفَتْ لكان اختصاراً للكلام، واختصار المختصر إجحاف[97] - كما يقول ابن يعيش - إلا أنه قد ورد حينما تكون هناك دلالة على المحذوف من قرائن السياق، فيصير المحذوف مع القرائن كالمتلفظ به.

ويظهر الأثر النفسي لحذف الأداة من خلال معرفة أسباب هذا الحذف، فقد ذكر العلماء أن الداعي للحذف هو التخفيف على المتكلم، لاسيما إذا كان المنادَى مقبلاً عليك متنبهاً لما تقوله[98]. وقد يكون داعي المتكلم لحذف الأداة طلباً في سرعة الاستجابة فاتجه إلى الاختصار في النداء.

وخص بعض العلماء حذف الأداة بأن تكون الأداة للقريب[99]؛ ولعل في هذا إشارة إلى أن الحذف لا يكون إلا مع عدم الإخلال بالمراد؛ لأن الحذف إذا أخلَّ عيب، والمنادى القريب لا شك في معية المنادي يعايش الحدث الكلامي، ويدرك تفاصيله ويفهم مراميه؛ ومن ثم فالتركيب مع الحذف مؤدٍ للغرض مع اختصار وإيجاز. ثم إن البعيد يحتاج إلى مد الصوت لتنبيهه وقد تحذف كل أدوات النداء المفيدة للقريب أو للبعيد، إذا نُزِّل المنادَى منزلة القريب، وجُعِل في نفس المتكلم كأنه مصغ إليه، مقبل عليه، يقول سيبويه:"وإن شئت حذفتهن كلهن استغناء، كقولك:(حار بن كعب) [100]، وذلك أنه جعله بمنزلة من هو مقبل عليه بحضرته يخاطبه"[101].

---

(2) الرد على النحاة، ص72.

(3) المصدر السابق، ص73.

(97) شرح المفصل 15/2ــ وانظر أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص627.

(98) شرح الكافية 268/1.

(99) انظر شرح المفصل 15/2.

(100) هو جزء من شطر بيت من الشعر تمامه:

حار بن كعب ألا أحلام تزجركم عنا وأنتم من الجوف الجماخير.

انظر الكتاب 73/2، المقتضب 233/4، الأمالي 302/2

فالحذف- إذن - للتخفيف، أو طلباً لسرعة الاستجابة، أو للشعور بقرب المنادى حقيقة أو تخيلاً، وللشعور بإقباله وإصغائه، وانتباهه للمنادي، وهي كلها عوامل نفسية أدت إلى ذلك.

ويجلي الجانب النفسي الزمخشري عند قوله تعالى: **{يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا }**[102]، فيقول:"حذف منه حرف النداء؛ لأنه منادى قريب، مقاطن للحديث، وفيه تقريب له، وتلطيف لمحله"[103].

ومن يتأمل كلام النحويين يجد نفسه أمام لمحات نفسية، ومعانٍ وجدانية، تنبع من خصائص النظم حيناً، ومن المواقف الانفعالية التي يفرضها جمال التعبير وإيحاءات التركيب أحيانا، فلأجل استحضار العوامل النفسية للمخاطب وللمتكلم امتنع حذف أداة النداء من النكرة غير المقصودة، قال الرضي:"وإنما لا تحذفه من النكرة؛ لأن حرف التنبيه إنما يُسْتغنَى عنه إذا كان المنادى مقبلاً عليك متنبهاً لما تقول له؛ ولا يكون هذا إلا في المعرفة؛ لأنها مقصودة قصدها"[104]. ومثلها النكرة المقصودة، واسم الإشارة على الأرجح، والمشتقات ونحوها.

والخلاصة أن حذف أداة النداء لا يكون إلا إذا أريد أن يكون ذهن السامع ينصرف إلى كل معقول يتخيله، وأن يكون المتكلم يشعر نفسياً بقرب المنادى منه وانتباهه إليه، حتى أضحى في غنى عن أداة النداء. وبتأمل الآيات الكريمة التي استعمل فيها النداء لغرض الدعاء في القرآن الكريم نجد أنها مطرد فيها حذف أداة النداء، لإحساس الداعي بشدة القرب بينه وبين الله –تعالى-[105].

ثالثاً: حذف آخر المنادى ترخيماً:

الترخيم هو: حذف أواخر الأسماء المفردة المعرفة في النداء[106]. علل سيبويه ذلك بكثرته في كلام العرب[107]. فكأنه يرى أن الداعي هو كثرة الاستعمال، والرغبة في التخفيف والحذف من المنادى في أسلوب الترخيم يأتي لأغراض نفسية تتمثل في الرغبة الجامحة في سرعة الفراغ من النداء والوصول للمقصود. وأكبر دليل على الجانب النفسي المؤثر في المتكلم أنه أحياناً ينقطع صوته دون أن يظهر الحكم الإعرابي فيبقى الحرف الأخير الملفوظ به على حركته قبل الحذف وهو ما يسمى عند النحويين بلغة من ينتظر. وقد يذكر الجانب الإعرابي ويكتفي بحذف الحرف وهذا هو ما يسمى بلغة من لا ينتظر. وغالبا ما يصادفنا هذا الأسلوب عند الشعراء المتيمين كـ

---

(101) الكتاب 330/2.

(102) يوسف 29.

(103) الكشاف 315/2.

(104) شرح الكافية 159/1.

(105) من مثل قوله تعالى: **{قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}** {الحجر:36}، **{وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ}** {النمل:19} وغيرهما كثير، ولم يأت حرف النداء قبل الرب إلا في قوله تعالى: **{وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}** {الزُّخرف: 88، 89}. ومجيء حرف النداء هنا تعبير عن الحالة النفسية التي ألمت بالرسول ﷺ وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم، ولكن زادوا كفراً، فكأنما شعر بتخلي الرب عن نصرته وبعده عن أن يعينه، فأتى بحرف النداء (يا) للبعيد ليرفع بها صوته زيادة في الضراعة إلى الله، واستجلاب رضاه. انظر: من بلاغة القرآن ص168.

(106) انظر المقتصد في شرح الإيضاح 791/2.

(107) الكتاب 239/2.

(كثير عزة) و(امرئ القيس) و(جميل بثينة) و(مجنون ليلى)، وله دوافع نفسية تتمثل في أن الرغبة في لقاء المنادى وشدة الشوق إليه لا تسمح بإتمام اسمه, وهو ما يسميه اللغويون الاقتصاد اللغوي لضيق المقام. وقد جاء في القرآن الكريم - في قراءة - قوله – تعالى-: **{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ }**[108] في قراءة (يا مالُ)، وهي ترسم الشدة التي هم فيها حتى عجزوا عن إتمام الكلمة.

فالأثر النفسي - وهو الرغبة في سرعة مغادرة المنادى والوصول للمقصود - أدى إلى أن يحكم النحويون على أن الترخيم لا يقع إلا في النداء.كما أنهم خصوه بما زاد على ثلاثة أحرف؛ لأن العرب تسعى للخفة كلما كثرت الحروف مع قصد سرعة الوصول إلى المقصود.

ولهذا فإن اعتناء علماء اللغة- حديثاً - بما عرف بالمعنى العميق، أو البنية العميقة (Deep structure) جاء نتيجة لقناعتهم بأن اللغة سلوك قائم على أصول نفسية عميقة من التفكير في اختيار الكلمات، وانتقائها، وطريقة إخراجها، وإظهارها، وحذفها في صورة تبين عما يجول في نفس المرسل أو استحضار لنفس المتلقي تلافياً للإلباس عليه؛ لأن اللبس أساساً يدخل في السلوك النفسي لدى متلقي اللغة بوصفها وسيلة للتفاهم، فإذا لم يكن المعنى واضحاً فإنه يعاني من إعمال الفكر، وربما تاه في التأمل، وعندئذٍ قد يعوقه إشكال في تقدير محذوف عن متابعة تالي الخطاب؛ لذلك لا بد من تجاوز البنية السطحية (Surface Structure) للوصول للمحذوف من الكلام، وتقديره على نحو يوافق سلامة القواعد النحوية ويفهمه المتكلم والسامع على حد سواء[109].

رابعا: حذف (ياء المتكلم) من المنادى:

يكثر في أسلوب النداء المضاف إلى ياء المتكلم حذف الياء تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ويعد النحاة الحذف هو الأكثر والأجود والمختار[110]. ويعللون ذلك بأن النداء باب حذف وتغيير، وياء الإضافة في الاسم بمنزلة التنوين في الضعف والاتصال، فكما لم يثبتوا التنوين في المنادى المفرد، نحو (يا زيد)، لم يثبتوا الياء ههنا. ولا يُخلُّ حذفها بالمقصود، إذ يبقى في اللفظ ما يدل عليها، وهو (الكسرة) قبلها[111].

ووراء هذا الحذف مؤثرات نفسية منها التخفيف دفعاً للسآمة؛ لأن استعماله وذكره كثيراً أضحى معلوماً لدى المتلقي، وفي هذا مراعاة لنفسية المتلقي. وهناك أثر نفسي آخر عائد على المتكلم، وهو تلهف المتكلم إلى تحقيق ما يدعو به أو سرعة استجابة من يناديه؛ ولهذا وردت كلمة (ربِّ) مناداة بدون (ياء) في القرآن الكريم قرابة سبعين مرة. وإذا كان حذف ياء المتكلم - عامة - كثير فإنها قد تقلب ألفا؛ لملائمة حالة نفسية أخرى يعانيها المتكلم, فيقال:يا حسرتا, ويا غلاما ونحوها.

---

(108) الزخرف 77.

(109) الجانب النفسي في حذف عامل المفعول به –مجلة الدراسات اللغوية ص147.

(110) انظر الكتاب 209/2، شرح المفصل 11/2، شرح الكافية 147/1.

(111) انظر المصادر السابقة.

خامسا: حذف المنادى:

ورد في كلام الله - سبحانه - وفي كلام العرب ما ظاهره حذف المنادى، كقوله تعالى:**{يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}**[112].

وقول امرئ القيس:

يا رُبَّ يوم قد لهوت وليلة بآنسة كأنها خط تمثال[113]

وغيرها من الشواهد، وقد ذهب بعض النحويين إلى أن (يا) هنا ليست للنداء، وإنما لمجرد التنبيه[114].

والذي أراه أن هذا المسار الأسلوبي هو أحد آثار مسار الإيقاع النفسي، لأن المنادِي أو المتكلم قد أحضر المنادَى في نفسه، ولكنه حذفه من غير أن يكون فكر فيه، أو فكر في تقديره، ليمنح أداة النداء (يا) خاصة مدى صوتياً بفضل ما فيها من صدى مؤثر، يحتاج إلى الحد من طول العبارة بعدها، فكأن المتكلم عزف عن ذكر المنادى ليذهب ذهن السامع كل مذهب، فيتصور كل منادى يمكن أن يعين على إعادة التوازن النفسي، ويعين على ما بعد النداء من شكوى، والنفس ليست في حال استئناس فيبسط الكلام، ولكنها في - هذا الأسلوب - في حال محنة وشدة، فتعاف طول الكلام، حتى لو اكتفينا بما رجحه بعض العلماء من أن (يا) لمجرد التنبيه، فهو عامل نفسي أوجد نداء بلا منادى، وهذا دليل على أن الجانب النفسي قد يؤثر على القواعد المعهودة لدى النحويين.

---

(112) النبأ 42.

(113) الديوان، ص29.

(114) انظر رصف المباني 452، 453، المغني 374/2.

المطلب الرابع: الدلالة النفسية لخروج النداء عن أصل معناه

خروج النداء عن أصل معناه - وهو تنبيه السامع - قضية تحدث عنها البلاغيون والنحويون، ومن يتأمل هذا الخروج يجده خروجا إلى معانٍ تحمل شحنات نفسية مختلفة في نوعها، وفي مستوى حدتها، غير أنها كلها ذات صلة وثيقة بالانفعالات الإنسانية الأساسية، كالاستغاثة والندبة والتعجب والتحسر والتوجع والزجر والتحقير والتهجين والاستعطاء وغيرها. وقد تنبه سيبويه فأشار إلى بعض ذلك بقوله: "هذا باب ما يكون النداء فيه مضافاً إلى المنادى بحرف الإضافة، وذلك في الاستغاثة والتعجب... وقالوا: ياالله ويا للناس؛ إذا كانت الاستغاثة، فالواحد والجميع فيه سواء. وقالوا: يا لَلْعجبِ! ويا لَلْمَاء! لما رأوا عجباً أو ماء كثيراً... وكل هذا في معنى التعجب والاستغاثة... ولم يلزم في هذا الباب إلا ياء التنبيه، ولا يكون مكان (يا) سواها من حروف التنبيه؛ لأنهم أرادوا أن يميزوا هذا من ذلك الباب الذي ليس فيه معنى استغاثة ولا تعجب"[115].

ومن يتأمل النصوص القرآنية والشعرية في العربية يجد ألفاظاً تؤدي معنى الدعاء، وهي مقترنة بالنداء في مواقف المفاجأة أو الهلع، أو الخشوع، أو الأسى، أو العجب، فهي تعبير عن عاطفة لها قيمة نفسية لا تنكر، ففي قوله تعالى: {**يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ** }[116]، خرج النداء من التنبيه إلى التلهف والتأسف والتحسر.

وغير هذه المعاني كثير، ولكن لعل الوقوف على أبرز المعاني التي خرج إليها النداء وعلاقته بالجانب النفسي وما يصاحبها من أغراض سلوكية ومحاولة ضرب الأمثلة التطبيقية - لذلك - أنفع وأجدى. فمن أبرز هذه المعاني ما يأتي:

1 - <u>الندبة:</u> هي منادى على سبيل التفجع[117] ، ويستعملون له (وا) كثيرا، أو (يا) أحيانا، والداعي لهذا الاستعمال لهذين الحرفين هو جانب نفسي؛ لأن الندبة من مد الصوت إعلاماً للسامعين بالفجيعة أو المصيبة فاستعملوا له ألفاظ البعد. قال ابن يعيش:"اعلم أن (المندوب) مدعو، ولذلك ذكر مع فصول النداء، لكنه على سبيل التفجع. فأنت تدعوه وإن كنت تعلم أنه لا يستجيب، كما تدعو المستغاث به وإن كان بحيث لا يسمع..." [118]. وقد تحدثنا عنها بما فيه غنية عند الحديث عن الأداة (وا).

2 - <u>الاستغاثة:</u> وهي كل اسم دعي ونودي ليخلص من شدة أو يعين على دفع شقة[119].

ولا بد لها من مستغاث به ومستغاث له، كقول عمر: ياالله للمسلمين، أي أنادي الله دعاء لأجل أن يلطف بحال المسلمين بعد رحيلي؛ لأنه قال ذلك وهو يستغيث بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي. وتلحقهما اللام، مفتوحة مع المستغاث به ومكسورة مع المستغاث له. وقد تحذف وتلحقه ألف الاستغاثة، فيقال: يا زيداه لِعمرو.

---

(115) الكتاب 215/2 - 218.

(116) يس 30.

(117) انظر شرح الكافية 131/1.

(118) شرح المفصل 13/2.

(119) شرح قطر الندى 218.

ولا تستعمل الاستغاثة إلا مع الأداة (يا)، ولا يجوز حذفها، ومن خلال أركانها الثلاثة (الأداة، والمستغاث به، والمستغاث له)، تظهر الجوانب النفسية فتستخدم (يا) لما فيها من مد الصوت والتعبير عن المعاناة والمكروه والشدة، ولاسترعاء انتباه المخاطب ليفطن إلى الحالة النفسية التي عليها المستغاث له. ثم جر المستغاث به بلام واجبة الفتح، والمستغاث له بلام واجبة الكسر ليعرف السامع الفرق بينهما، ولمعنى نفسي آخر وهو مناسبة معنى اللام لمعنى المستغاث؛ لأنها لام التخصيص، أدخلت علامة للاستغاثة – وقد تأتي للتعجب - لمناسبة معناها لمعناهما؛ لأن المستغاث مخصوص من بين أمثاله بالدعاء - فاللام معدية لـ(أدعو) أو لحرف النداء القائم مقامه، وجاء ذلك مع أن (أدعو) متعد بنفسه، لضعفه عن الإضمار أو لضعف النائب منابه[120].ويستشهد له النحويون بشواهد من الشعر، منها قول الشاعر:

يا لَقومي ويا لأمثال قومي لأناس عتوهم في ازدياد[121]

استعمل الشاعر (يا) الندائية للاستغاثة لما فيها من التنبيه ومد الصوت تنبيهاً للمستمع، وتعبيراً عن الحالة النفسية التي يعانيها المستصرخ، ورغبته الجامحة في أن يتفاعل معه السامعون لإنقاذه من المستغاث منه، ثم جر المستغاث به بلام مفتوحة وعطف عليه فكرر حرف النداء وكرر اللام، ثم جر المستغاث منه. والشاعر أراد أن يعبر مستغيثا ومستصرخا قومه من الاستكبار والطغيان، ولم يكن له إلا أن يتسلح بهذا الأسلوب، ليخفف من القلق الذي يعيشه نتيجة لذلك.

وخلاصة القول أن الاستغاثة هي إفراز خوف، والخوف من الشحنات النفسية الانفعالية الأساسية، وأحسب أن النحويين ما اختاروا عنواناً لهذا المعنى وسموه بالاستغاثة وجعلوه مستغاثاً به ومستغاثاً له أو منه إلا لإدراكهم أن التركيب النحوي يخفي خلفه مشاعر وعواطف وانفعالات كامنة في نفس المتكلم. وبالتالي جعلت هذه الانفعالات عنواناً، فسمي عندهم باب الاستغاثة، وهي تسمية نفسية عاطفية مجردة.

3 - التعجب: وهو في عرف النحويين:"تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأنه لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله"[122]. وهو عند علماء النفس "حالة داخلية تتصف بجوانب معرفية خاصة وإحساسات وردود أفعال فسيولوجية، وسلوك تعبيري معين، ينزع للظهور فجأة.."[123].

والسلوك التعبيري قد يكون حركة ظاهرة، وقد يكون كلاماً، ومن الكلام النداء. وتدخل المنادى المتعجب منه لام مفتوحة كما كانت في المستغاث به، وتكون هذه اللام علامة على التعجب، قال سيبويه:" وقالوا: يا للعجب، ويا للماء، لما رأوا عجباً أو رأوا ماء كثيراً، كأنه يقول تعال يا عجب، أو تعال يا ماء، فإنه من أيامك وزمانك"[124].

وقد يستعمل النداء للتعجب بلا لام، كقولك لمن يحدثك عن أمر غريب عجيب:"يا رجل"، وعند مداعبتك لطفلك فتقول: يا أجمل طفل رأيته. فهذه الأساليب لا يقصد منها التنبيه، وإنما هي

---

(120) شرح الكافية 133/1.

(121) أوضح المسالك 46/4، شرح قطر الندى 218، الأشموني 125/3.

(122) الكشاف 97/4.

(123) علم النفس العام ص104.

(124) الكتاب 217/2.

أحاسيس مثيرة يستشعرها القلب، وترتسم على الوجه، ويعبر عنها اللسان فتطغى على الجانب الصوري للنداء.

ومن أبرز شواهد مجيء النداء للتعجب قول امرئ القيس:

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل[125]

فامرؤ القيس هنا ينادي الليل متعجبا مستخدما الأداة (يا) واللام التعجبية، وضمير المخاطب ثم أدخل (مِنْ) على الليل توكيدًا لذكره. وكلها وسائل تحقق ترابطاً نفسياً وتعبيرياً بين الذات والموضوع، فنداؤه لليل نداء أهل العقل والتميز لا ينفصل عن إحساسه باليأس والرهبة والخوف، وما أدخل أداة النداء على شبه الجملة إلا تعجباً من هذا الليل الذي تحول إلى كائن رابض على الأرض مشدودة نجومه بحبال قوية إلى جبل ضخم أصم؛ لتكون العلاقة بينهما تلبد الهموم في حنايا النفس، وعدم الشعور بمعاناة المنادى. فكل مفردة في الشاهد هنا لها دلالتها وانفعالها وتعبيرها عن الإحساس بالمثير لدى الشاعر. والأسلوب التعجبي الندائي فيه استنكار وضجر وملل، وإحساس بالقسوة، وأسلوب النداء أسهم في ترسيخ هذا الإحساس.

4 - التهديد والوعيد: التهديد هو سلوك لا يقع في الأصل إلا من غاضب، يوجهه سلوك الغضب ليوقع أثراً نفسياً يحدث مثيراً لدى السامع، يدفعه إلى الامتناع عن أمر ما. كقول رجل الحسبة لمن يراه على معصية: يا عدو الله. وتغلب على أسلوب النداء في هذا المعنى دخول اللام فيقال: يا لزيد لأقتلك. وتكون علامة للتهديد كما كانت علامة للاستغاثة والتعجب. ولا يجوز لهذه اللام أن تدخل على المنادى في غير هذه المعاني[126].

والتهديد يتفاوت في درجاته بتفاوت الغضب وشدة حالات الانفعال، ووفقاً لما يفرضه السياق والمقام، فغضب الأب من ابنه يكون أشد غالباً، ولكن إذا كان الشخص مكافئاً له فيكون التعبير عن الغضب وأسلوب التهديد أقل حدة.

وفي أسلوب النداء المفيد للتهديد يشترك الطرفان المنادِي والمنادَى في الاستجابة العاطفية فالمنادِي يغضب لما وجده من المنادَى، والمنادَى يغضب لما يجده من تهديد ووعيد. ويمثل النحويون لهذا المعنى بقول الشاعر:

يا لَبكر انشروا لي كليبا يا لَبكر أين أين الفرار[127]

وفي البيت حذف؛ لأن قوله:(يا لبكر) أي: يا آل بكر فحذفت الهمزة للتخفيف والألف لالتقاء الساكنين –كما يقول القدماء - لأن الألف لا يمكن أن تُتْبَع بألف كما هو عند المحدثين، فالألف حركة لا يمكن أن تليها حركة. وعلى الرغم من أن الحذف والاستغاثة معروفان في اللغة إلا أن الأخذ بهما وتطبيقهما على هذا الشاهد يستجيب لما فيه من التهديد والوعيد، فالحالة النفسية التي يحملها الشاهد الشعري والتي دفعت الشاعر إلى النداء لم تتمرد على القواعد النحوية.

5 - الاختصاص: وهو أسلوب يلتقي مع النداء، ويُحْمَل عليه - وإن كان حرف النداء محذوفاً - وما جاء الاختصاص بلفظ النداء إلا لاشتراكهما في هذا المعنى؛ لأن المنادى مختص بالخطاب أيضاً من بين أمثاله، يجلي هذا قول المبرد:"ونظير إدخالهم التسوية على الاستفهام لاشتمال التسوية عليهما قولك: (اللهم اغفر لنا أيتها العصابة)، فأجروا حرف النداء على (العصابة)، وليست مدعوة؛ لأن فيها الاختصاص الذي في النداء. وإنما حق النداء أن تعطف به

---

[125] ديوان امرئ القيس 19. وانظر رصف المباني 296، الارتشاف 141/3

[126] شرح الكافية 134/1.

[127] البيت للمهلهل بن ربيعة، انظر الكتاب 215/2، الخصائص 229/3، خزانة الأدب 162/2.

المخاطب عليك، ثم تخبره أو تأمره أو تسأله، وغير ذلك مما توقعه إليه... فإذا قلت:(اللهم اغفر لنا أيتها العصابة) فأنت لم تدع (العصابة) ولكنك اختصصتها من غيرها كما تختص المدعو، فجرى عليها اسم النداء؛ لمساواتها إياه في الاختصاص"[128].

وفي قول المبرد هذا استحضار للجوانب النفسية في النداء والاختصاص، والاختصاص يأتي للتفاخر نحو: (نحن العرب أقرى الناس للضيف) والتصاغر نحو:أنا الفقير إلى الله أيها الرجل... وهكذا. ولا يخفى ما في هذه الأساليب من انعكاس للعوامل النفسية داخل المتكلم، وهذه الأساليب يصعب على المعرب النحوي أن يعرف خباياها النفسية في فؤاد المتكلم غير أن السياق غالباً ما يكشف عن المراد، فيعّول عليه في التحليل النفسي.

6 - تعظيم الأمور ومدحها: يأتي النداء أحياناً كثيرة للتعظيم، وهو حالة نفسية داخلية تتصف بجوانب معرفية خاصة وإحساسات وردود أفعال فسيولوجية، وسلوك تعبيري معين ينزع للظهور أحياناً, ويكون سلوكاً ظاهراً بادياً على القسمات، وقد يكون سلوكاً لفظياً تفرزه الكلمات، يقول أحد الباحثين: "إذا أرادت العرب أن تعظم أمرًا من الأمور جعلته نداء"[129]. ويقول الزمخشري في قوله تعالى: **{ يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}**[130]. قال الزمخشري:"يمكن أن يكون التحسر من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به، وفرط إنكاره له وتعجبه منه"[131].

وقال ابن جني: "قرئ (يا حسرة) بالهاء الساكنة، إنما هي لتقوية المعنى في النفس، وذلك أنه في موضع وعظ وتنبيه، وإيقاظ وتحذير. فطال الوقوف على الهاء كما يفعله المستعظم للأمر المتعجب منه، الدال على أنه قد بهره وملك عليه لفظه وخاطره"[132]. وقال أبو حيان تعليقاً على كلام سيبويه: "وكأن الذي ينادي (الحسرة) أو (العجب) أو(السرور) أو (الويل)، يقول اقربي أو احضري، فهذا أوانك وزمانك"[133]. قال أبو حيان: "وفي ذلك تعظيم للأمر على نفس المتكلم، وعلى مسامعه إن كان ثَمّ سامع، وهذا التعظيم على النفس والسامع هو المقصود في نداء الجمادات، ونداء ما لا يعقل.." [134].

7 - الاستهزاء والتهكم والتحقير والاستهانة: وهذه المعاني المتعددة كلها نجدها متمثلة في معاني النداء، وهي تعكس أثر السلوك الخلقي على السلوك اللغوي. يدل على ذلك قوله تعالى: **{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}**[135]، قال الزمخشري:"وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء... وكيف يقرون بنزول الذكر وينسبونه إلى الجنون؟ والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع"[136].

---

(128) المقتضب 298/2، 299. وانظر الكتاب 232/2.

(129) أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين 298.

(130) يس 30.

(131) الكشاف 320/3.

(132) المحتسب 256/2.

(133) الكتاب 217/2.

(134) البحر المحيط 107/4.

(135) الحجر 6.

(136) الكشاف 387/2.

ويقولون عادة:(يا عاقل) أو (يا فاهم) أو (يا ذكي) ويقصدون ضدها من المعاني تهكما وسخرية واستهانة واستهزاء، قال ابن فارس:"فقد جرى في كلامهم أن يوصف الرجل بما هو متصف بضده تهكماً به وسخرية، وهذا من أشد سباب العرب"[137]. وتصعب معرفة الخبايا النفسية لدى المتكلم المنادي، لكن السياق يكشف عن ذلك، وهذه الأساليب يعّول فيها على التحليل النفسي لاستيضاح الجملة الندائية وتحليلها نحوياً.ومن أمثلة ذلك قول جرير بن عطية يهجو العباس بن زيد الكندي:

أعبداً حل في شعبي غريباً ألوماً لا أبالك واغترابا[138]

ومن هذا القبيل يمكن أن يحمل البيت الشعري المشهور الذي يهجو فيه الفرزدق جريراً:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع[139]

كما يأتي النداء لمعانٍ كثيرة أخرى فيها جانب من الانفعالات النفسية المتعلقة بالمتكلم، ومن أبرزها: التمني والاستعطاف، التلهف والتأسف، والتلذذ والتشوق، والندم والجزع، والتكريم والمدح، وكلها يحملها أسلوب النداء، وتسهم معطيات علم اللغة النفسي في تحليل الجوانب الانفعالية فيه وتعين على أن يتم تركيب الكلام تركيباً نحوياً سليماً.

إن أسلوب النداء يستمد أهميته وقوته ومكانته في المؤلفات النحوية من ترتيب ألفاظه وتركيبها ترتيبًا وتركيبًا نحويًا سليمًا، ومن تناسق دلالاته واستخداماته تناسقًا بديعًا.

وهاتان الخاصيتان لا تتحققان من غير قواعد نحوية صارمة ومعانٍ ومشاعر تسهم في نقل المقصود وتحقيق الغرض.

إن ارتباط أسلوب النداء بالدراسات النحوية والدراسة النفسية يؤدي إلى رصد الأدوات الندائية ومعرفة دلالتها التعبيرية، واستعمالها في دلالات إضافية يتطلبها السياق، أو حال المتكلم أو السامع، وكل هذه تقوم على نظام خاص يضبطها، وينظم الكلام معها، ويحمل الفكرة التي يجسدها هذا الأسلوب؛ ليكون لدى المتكلم والسامع توازن بين الحركة النفسية لديه والحركة الشكلية للملفوظ الذي ينطق به.

وجمارة القول أن النداء من أبرز أبواب النحو، وأعلقها بطبيعة الإنسان، وأقدرها تعبيرًا عن مشاعره وأحاسيسه -كما أشرنا سابقاً - وإن أدواته المتعددة هي الأسس والدعائم التي تقوم عليها الجملة الندائية؛ ولهذا فإن دراسته دراسة نحوية نفسية تؤدي إلى أن نفهم ونعرف اللغة بأحاسيسنا قبل أن نحفظها قواعد مجردة.

إن من ينعم النظر في استعمالات النداء في القرآن الكريم يجد إلماحات نفسية عبَّر عنها لأسلوب النداء أحسن تعبير سواء كان من خلال الأداة أم المنادي، أم المنادى، فحذف (يا) النداء مثلا من (اللهم) وتعويض الميم المشددة يوحي بوجود دافع نفسي أكثر من أن يكون استعمالاً لفظيا مجردا، لاسيما إذا استحضرنا أن هذا التعويض خاص بلفظ الجلالة دون غيره.

كما أن النظر إلى النداء من جانبه النفسي في التنبيه قبل الأوامر والنواهي وغلبتها بعده في القرآن، وندرة تقدمها عليه توحي بوجود غرض معين.

ولو تأملنا الجانب النفسي لنداء الأب لابنه والتزام صيغة التصغير (يا بني) للدلالة على شدة العطف والتحنن والشفقة، وكذا نداء الابن لأبيه (يا أبت) وما فيها من التقدير والإجلال والإكرام

---

[137] الصاحبي 178.

[138] ديوان جرير 650, وقد تقدم سابقًا.

[139] ديوان الفرزدق 418/1.

الذي استدعى استخدام (الياء) وأيضا نداء الرسول ﷺ الذي يختلف بحسب اختلاف الحالة التي هو عليها، والوضع النفسي الذي به، فمرة ينادى **{يا أيها المدثر}** وآخر **{يا أيها المزمل}** وثالثة **{يا أيها النبي}** ورابعة **{يا أيها الرسول}**. أقول لو تأملنا ذلك لوجدنا أنفسنا أمام كم كبير من الإشارات النفسية التي يحملها هذا الأسلوب. وقد أشرنا إلى ذلك سابقا[140].

ومن ينعم النظر في اللغة وتراكيبها لن يلفيها إلا أوعية تحمل المشاعر والأحاسيس والعواطف والانفعالات لتوصلها وغيرها إلى المتلقي، والنداء نمط أسلوبي تتجلى فيه مهمة اللغة هذه على أكمل ما تكون في كتب النحو ابتداء من كتاب سيبويه حتى شروح الألفية ستعتريه الغبطة مما اشتملت عليه تلك الكتب النحوية من نظرات نفسية وإلماحات سياقية لها علاقة بنفسية المتكلم أو السامع، ولكن يلحظ أنها لم تكن مقصودة، فاتجهت الجهود نحو الجملة المفردة وليس نحو النص، وكثرت الإعرابات, وتعددت الأوجه, وتنوعت المذاهب, والآراء. ولو وظفت هذه النظرات, ومنحت أهمية كبيرة لحلت كثيرًا من إشكالات الحذف, والذكر, والتقديم, والتأخير، والمتعلقات بالسوابق واللواحق، وغيرها مما امتلأت به كتب النحو. كما أن توظيف الجوانب النفسية في دراسة النحو سيسهم - من وجهة نظري - في تيسير النحو وتسهيله على المتعلمين، وتقريبه إليهم.

خاتمة البحث :

جمارة ختام هذا البحث أنه يأتي في منظومة من المحاولات التي تسعى إلى حماية اللغة العربية، وبخاصة الدرس النحوي الذي بدأ يعاني من سيطرة مناخ الجدب عليه, من خلال سعي بعض علمائه إلى إنهاكه بالتعليل والتفصيل والتأويل حتى جفا وجف,كما تسعى هذه الدراسة إلى إلغاء الحدود الفاصلة بين التخصصات, فهي تشي بضرورة التكامل بين التخصصات.

وإذا كانت الدراسات اللسانية الحديثة – وبخاصة في الغرب قد أنجزت خطوات مهمة في مجال الدراسات البينية, وعمدت إلى عقد صلات بين العلوم، فإن الأمر بالنسبة للدراسات اللغوية العربية – وبخاصة النحو- يعد جديداً إلى حدٍّ بعيد, وتعد الخطوات السابقة والمبكرة التي انتهجها علماء اللغة القدماء, وتخلى عنها المتأخرون – خطوات محدودة وتبدو محتشمة ومحسوبة, ولا تكاد ترقى إلى مستوى التأسيس لهذه العلاقة , وهذا لا يعني أن علماء النحو لم تكن لهم فطنة ودراية وقدرة عالية على الربط المحكم بين العلوم, ولكن طغى عليهم الانشغال بالتعليلات والتأويلات والتقديرات على حساب الاستحضار السياقي, والنظر إلى المعاني بوصفها مؤثراً رئيساً في التركيب. وللحق لم يكن كل النحاة على سنن واحد, بل تباينوا في تناول أبواب النحو وقضاياه, فمنهم - وهم الأكثر- من ينظر للجانب الإعرابي المجرد, ويحشد كل الأوجه المحتملة والممكنة والمفترضة, بل المحالة أحياناً, ومنهم من يسلك طريقاً أقرب إلى القصد, ويربط الإعراب بصحة المعنى, واستقامة التركيب, ودوافع الأسلوب. أما علماء البلاغة فكانوا أكثر استحضاراً للجانب النفسي من النحويين, وربما كان هذا سبباً في تمايز العلمين وانفصالهما في مرحلة من مراحل التأليف, غير أن البلاغة عادت في العصور

---

[140] ص10 من هذا البحث

المتأخرة إلى المنهج النحوي المبني على التقنين والمعيارية, وهو أمر يؤكد على ضرورة إعادة بناء العلاقة بين العلوم المختلفة والدراسات النفسية؛لما سينتج عن ذلك من قبول للغة وإقبال عليها.

ولقد عمدت - في هذا البحث- إلى الربط بين علم النفس وعلم النحو من خلال باب نحوي, حوته المؤلفات النحوية وتناولته بالتفصيل والإعراب, ولقد تناولت فيه الجوانب النفسية, التي تتنوع وتتغير بسببها أدواته وأحواله وإعرابه؛ لأن مستويات الاستعمال في أسلوب النداء تتنوع بتنوع المواقف والانفعالات التي تحيط بالمتكلم أو بالمتلقي أو بهما معاً.

وأخيرا أدعو الباحثين إلى الاهتمام بالدراسات البينية؛ لأنها أضحت مطلباً ملحاً تستدعيه المرحلة, ويتطلبه واقع الدراسات اللغوية العربية المعصرة.

المصادر والمراجع

- **أصول علم النفس العام، سعد جلال، مكتبة المعارف الحديثة، القاهرة، 1980.**
- **أمالي ابن الشحري، لهبة الله بن علي الشجري، تحقيق ودراسة د/محمود الطناحي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2/2006م**
- **الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مصر، ط3، 1951م.**
- **أثر التأويل النحوي في فهم النص، غازي طليمات، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد 15، دبي، 1997م.**
- **ارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق وتعليق د/مصطفى النماس، مطبعة المدني بمصر، ط1 1989م.**
- **أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د/قيس إسماعيل الأوسي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد وبيت الحكمة.**
- **أسس علم النفس العام، سعد جلال، مكتبة المعارف الحديثة، القاهرة، 1980م.**
- **أسلوب النداء وجمالياته عند البلاغيين والنحاة، رسالة ماجستير للطالب/عادل نعامة، جامعة تشرين، سوريا، 2003م.**
- **الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق د/عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م.**
- **أصول علم النفس العام، عبدالحميد الهاشمي، دار الشروق، جدة، 2002م.**
- **أصول علم النفس، أحمد عزة راجح، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1973م.**
- **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام، تحقيق/محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت.**
- **البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق/ عبدالسلام هارون، القاهرة، 948م.**
- **الجمل، الزجاجي، حققه وقدم له د/علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص2 1985م.**
- **الجملة العربية والمعنى، فاضل السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، 2000م.**
- **الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ط1، 1973م.**
- **الخصائص، ابن جني، تحقيق/ محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1956م.**
- **ديوان امرئ القيس، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط2، 1964م.**
- **ديوان ذي الرمة، طبعة كمبردج، 1919م.**
- **ديوان عنترة، تحقيق وتقديم/ فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط3، 1980م.**

- ديوان أبي فراس الحمداني، تقديم وشرح/ عبدالقادر محمد مايو، وراجعه أحمد عبدالله فرهود، دار القلم العربي، ط1، 2000م.
- ديوان الفرزدق، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1984م.
- ديوان كثير عزة، جمع وشرح/ إحسان عباس، نشر دار الثقافة، بيروت، 1971م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني، تحقيق/ محمد رضوان وفايز الداية، دار قتيبة، دمشق، 1983م.
- الرد على النحاة, لابن مضاء, دراسة وتحقيق/محمد إبراهيم البنا, دار الاعتصام, القاهرة, 1979م.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمالقي، تحقيق د/أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط21985م.
- شرح ديوان الخنساء، أبو العباس ثعلب، قدَّم له وشرحه/ فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996م.
- شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري، تصحيح وضبط/ مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت 1978م.
- شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام الأنصاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط11، 1963م.
- شرح الكافية، رضي الدين الاستراباذي، دار الكاب العلمية، بيروت، لبنان.
- شرح المفصل، ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت.
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، دار إحياء العلوم، بيروت، 1965م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، 1937م.
- علم اللغة النفسي, د/عبد المجيد سيد أحمد منصور, عمادة شؤون المكتبات, الرياض,ط2, 1982م.
- علم النفس التربوي، أحمد زكي صالح، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- علم النفس العام، صالح الذهري، وهيب الكبيسي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، إربد، الأردن.
- علم النفس المعرفي,تأليف روبرت سولسو, ترجمة محمد نجيب الصبوة, ومصطفى محمد كامل, ومحمد الحسانين,شركة دار الفكر الحديث, الكويت, 1996م.
- علم نفس اللغة من منظور معرفي، موفق الحمداني، المسيرة للنشر والتوزيع، ط2، 2007م.
- العلوم السلوكية، نبيلة عباس شوربجي، وعفاف عبدالفادي، دانيال، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، عالم الكتب، بيروت، 1983م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار الفكر، بيروت.
- اللغة معناها ومبناها، تمام حسان، مصر، 1973م.
- مجلة الدراسات اللغوية، المجلد السابع، العدد الثالث، 2005م.
- مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 86، نوفمبر، 1999م.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جني، دراسة وتحقيق/ محمد عبدالقادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- المرتجل، أبو محمد بن الخشاب، تحقيق/ علي حيدر، دمشق، 1972م.
- مشكلات اللغة والتخاطب، في ضوء علم اللغة والنفس، نازك إبراهيم عبدالفتاح، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2002م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق/ محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة.
- المقتصد، في شرح الإيضاح، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق/ كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الوراق، 1982م.
- المقتضب، المبرد، تحقيق/ محمد عبدالخالق عضيمة، القاهرة، 1986م.

- المقرب، ابن عصفور، تحقيق أحمد عبدالستار الجواري، وعبدالله الجبوري، وزارة الشؤون الدينية، بغداد، 1971م.
- من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، الفجالة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1978م.
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد الموسى، دار البشير، عمان، 1987م.
- همع الهوامع، السيوطي، تحقيق وشرح/ عبدالعال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، 1975م.
- yddel,scott,americen sign language, mouton publishers - 1980m